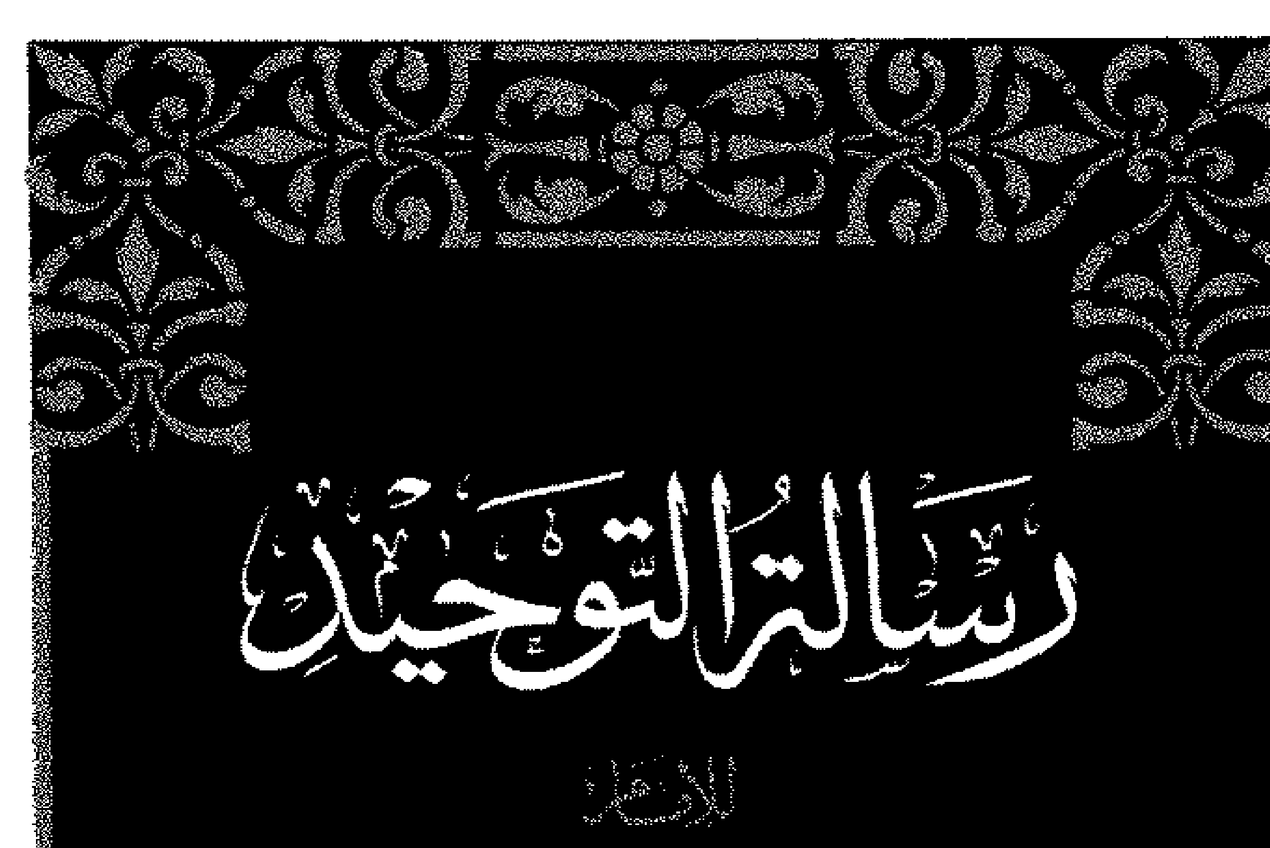


رسالة التوحيد

للإمام

الشيخ محمد عبده

الدكتور محمد عمارة

دار الشروق

رِسَالَةُ التَّوْحِيدِ

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

بيروت: دار الياس - شارع سيدة نياتيا - بناية صفصف
ص.ب: ٨٠٦٤ - برقياً: داشروق - تلكس SHOROK 20175 LE
- هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - ٨١٧٧٦٥
٨٦٧٥٥٥ - ٢٠٧١٨٤

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني ت: ٣٩٣٣٣٩٩ / ٣٩٣٤٥٧٨
فاكس ٣٩٣٤٨١٤ - تلكس ٩٣٠٩١ SHROK UN
٨ شارع سيبويه المصري - مدينة نصر - ت: ٤٠٢٣٣٩٩
٤٠٢٣٤٤٨ - فاكس ٤٠٣٧٥٦٧

رسالة التوحيد

للإمام محمد عبده

د. محمد عمارة

دار الشروق

هذه الرسالة

إن كتاباً يكون موضوعه:

○ الله، جل جلاله.. وصفاته.. وأفعاله..

○ والإنسان.. ومكانته وأفعاله..

○ والرسالة والنبوة - عامة - ولمحمد بن عبد الله، ﷺ، على وجه الخصوص..

○ والقرآن الكريم.. معجزة الإسلام ورسوله..

○ ثم.. هذه العقائد والأصول، كما تبلورت في الشريعة الإسلامية - وهي رسالة الله الدينية إلى محمد وأمته.. ورسالة العرب الحضارية إلى الإنسانية جمعاء!..

إن كتاباً يكون هذا موضوعه لهو على جانب عظيم من الخطر والأهمية... وهذا هو موضوع (رسالة التوحيد)؟!..

وعندما يكون كاتب (رسالة التوحيد) هذه هو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م)، أبرز أعلام مدرسة التجديد الديني في عصرنا الحديث. فإن هذه (الرسالة) تزداد أهمية. وموضوعها يتزايد خطراً؟!..

فقبل عصر يقظتنا وتنويرنا ونهضتنا، التي أسهمت مدرسة

التجديد الديني هذه في صنعه بالنصيب الأوفى، كانت عقائد هذه الأمة وأصول دينها قد رانت عليها الجهالات والبدع والخرافات.. وتحولت أغلب كتب (التوحيد) خلال العصر «المملوكي ـ العثماني» إلى «متون» و «حواشي» تمتلىء بالجدل اللفظي العقيم، وتغرق عقل هذه الأمة في طوفان من القصص الخرافي والإسرائيليات!..

ثم كانت (التعليقات) التي أملاها رائد مدرسة التجديد الديني جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ ـ ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧ م) على تلاميذه.. وهي (التعليقات) التي قدمها على «شرح الدواني[١] للعقائد العضدية[٢]».. كانت هذه التعليقات أول نص حديث في الإلهيات الإسلامية، ينظر في عقائد الأمة بعقل مستنير، ويقدم لها ـ مع النقد والإضافة ـ فكر فلاسفتها الإلهيين، الذين صنعوا بإبداعهم عصر الازدهار الحضاري للعرب والمسلمين..

لكن هذه (التعليقات) قد ظلت ـ لعمقها الشديد وتخصصها الأشد ـ كتاباً «للخاصة» من المفكرين المتفلسفين[٣]!..

---

(١) جلال الدين الدواني (٨٣١ ـ ٩١٨ هـ ١٤٢٧ ـ ١٥١٢ م) من فلاسفة الإسلام وقضاة فارس في عصره.. كتب بالفارسية إلى جانب العربية وترك شروحاً على عدد من نصوص علم الكلام.

(٢) عضد الدين الأيجي (٧٥٦ هـ ١٣٥٥ م) من علماء الكلام والأصول واللغة والبلاغة والتاريخ، وكتابه: (المواقف) أحد المراجع الشهيرة في علم الكلام.

(٣) حققنا هذه (التعليقات) ونشرناها في الجزء الأول من طبعتنا الحديدة (للأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) بيروت سنة ١٩٧٩.

ومرت السنوات.. وجمهور هذه الأمة وعامة مثقفيها يتطلعون إلى كتاب في «الإلهيات»، يصحح لهم العقيدة، ويحرر فيهم العقل، ويمثل في مكتبتهم رأي مدرسة التجديد الديني في أصول الدين وعقائده، حتى كانت هذه الرسالة ـ (رسالة التوحيد) ـ التي كتبها الأستاذ الإمام، لتنهض بهذا الدور الهام والعظيم!..

* * *

ونحن، في هذه الدراسة التي نقدم بها هذه الطبعة من طبعات (رسالة التوحيد)، لن نعمد إلى الترجمة لحياة الأستاذ الإمام، ولا إلى الحديث عن فكره التجديدي والدور الذي نهض به في تحرير عقل الأمة العربية الإسلامية من قيود التقليد والخرافة، وأثر ذلك في التنوير والنهضة اللذين جعلا العرب والمسلمين يتجاوزون عصورهم المظلمة إلى رحاب عصرهم الحديث!.. لن نتحدث، هنا، عن ذلك، لأننا قد صنعناه عندما قدمنا (للأعمال الكاملة للإمام محمد عبده)[٤] بدراسة مستفيضة اقترب عدد صفحاتها من الثلاثمائة ـ وهي الدراسة التي طبعتها دار الشروق، في كتاب مستقل، ليتيسر الحصول عليها لجمهور أوسع من جمهور (الأعمال الكاملة).. وأيضاً.. فلقد سبق أن ترجمنا للأستاذ الإمام في «كتيب» عن (سيرته وأعماله)[٥].. ثم في نهاية كتابنا عن «الإسلام والمرأة في رأي الإمام محمد

---

(٤) صدرت الطبعة الأولى من هذه الأعمال، ببيروت، سنة ١٩٧٢ م.. وطبعتها الجديدة ـ والمزيدة ـ بالقاهرة ـ دار الشروق ـ ١٩٩٣م.

(٥) صدر عن «دار القدس» ببيروت..

عبده»[٦] عقدنا فصلاً عن حياته ودوره في التجديد.

فقط.. نريد هنا أن نشير ـ مراعاة للحيز، والمقام ـ إلى نقاط تلقي بعض الضوء على (رسالة التوحيد) التي نقدم بين يديها:

○ فهذه الرسالة هي واحدة من أهم نصوص الأستاذ الإمام.. تلك النصوص التي اقتربت صفحاتها ـ في (أعماله الكاملة) من الأربعة آلاف صفحة!.. وذلك لخطر موضوعها، وللمنهج التجديدي العقلاني المستنير الذي عالج الأستاذ الإمام به هذا الموضوع.. فموضوعها هو «علم التوحيد»، وهو ـ كما يقول الإمام: «ركن العلم الشديد»!.... كما تتجلى في اسلوبها خصائص أسلوب الأستاذ الإمام، كرائد في التجديد للغة هذه الأمة وأسلوب كتابتها، بعد عصر الركاكة والمحسنات اللفظية.. الأمر الذي ييسرها للجمهور، ويجعلها ـ في ذات الوقت ـ زاداً فكرياً دسماً وعميقاً للخاصة من الباحثين والمفكرين!.. وبعبارة المؤلف فأسلوب (الرسالة) «لا يصعب تناوله، وإن لم يعهد تداوله؟!»، الأمر الذي يجعلها تلبي حاجة «القاصد» المقتصد، دون أن يستغني عنها «المكاثر» المتبحر في العقائد والإلهيات!»..

○ وفي هذه الرسالة تبدو الروابط بين «العقائد» وبين «وظائفها» في واقع الإنسان.. فللألوهية دور عظيم في تحرير

---

(٦) كتاب الهلال. نوفمبر سنة ١٩٧٩ م. (ولقد صدرت له ثلاث طبعات أخرى بالقاهرة وبيروت).

روح الإنسان وعقله... الأمر الذي جعل لهذا الإنسان مكانة سامية في الإسلام، مكانة الخليفة عن الله، المدعو لأن يتخلق بأخلاق الله!.. والموعود من ربه، إن هو صنع ذلك، بأن يصبح ربانياً، أي مسيطراً، بالوعي، على قوانين حياته، حتى ليقول للشيء: كن فيكون؟!..

○ وفي هذه الرسالة تتجلى نصرة الإسلام «للعقل» كي يهزم «التقليد»، الذي قتل روح الريادة والمخاطرة والإبداع في الأمة، حتى عاشت ليل عصورها المظلمة في ظل جهالة المماليك والعثمانيين!.. فالإسلام ـ كما يقول الأستاذ الإمام: «قد انحى على التقليد، وحمل عليه حملة بددت فيالقه المتغلبة على النفوس، واقتلعت أصوله الراسخة في المدارك، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان في عقائد الأمم... لقد علا صوت الإسلام، وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام، ولكنه فطر على أن يهتدي بالعلم!.. ولذلك أطلق الإسلام سلطان العقل من كل ما قيده، وخلصه من كل تقليد كان استعبده، ورده إلى مملكته يقضي فيها بحكمه وحكمته، مع الخضوع لله وحده!..».

○ وفي هذه (الرسالة) يظهر الإسلام «بريئاً» من تلك الكهانة التي جعلت الدين حرفة يحترفها قوم انتزعوا لأنفسهم سلطان الله، بل واحتكروا ـ ظالمين ـ هذا السلطان، ثم سموا أنفسهم «رجال الدين»!.. يظهر الإسلام، في هذه (الرسالة) «بريئاً» من هؤلاء «الوسطاء» بين الإنسان وربه، بل و «عدواً» لهذه الوساطة وهؤلاء الوسطاء!.. فكما يقول الأستاذ الإمام:

«لقد مال الإسلام على الرؤساء، فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون، ووضعهم تحت أنظار مرءوسيهم، يخبرونهم كما يشاءون، ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون، ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون، لا بما يظنون ويتوهمون»!..

○ وفي هذه (الرسالة) نرى الإسلام قد أنزل «الماضي» عن عرشه، الذي احتله بحكم أنه «ماض» فقط لا غير؟!.. فالذين يقدسون «الماضي»، ويزداد تقديسهم له كلما أوغل في العتاقة والقدم، ليس موقفهم هذا من الإسلام في شيء... وبعبارات الأستاذ الإمام: «.. فلقد سجل الإسلام الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين، ونبه على أن السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان.. وإنما السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيان، بل للاحق من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيه والانتفاع بما وصل إليه من آثارها في الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه؟!».

○ وفي هذه (الرسالة) نرى أية كنوز يضعها الإسلام بين يدي أمته، لافتاً إليها بصرها وبصيرتها، مهيباً بها أن تفتح هذه الكنوز الميسورة، وتستثمرها في النهضة واللحاق، بل والسبق للآخرين!..

فإذا كان العقل، بنظر الإسلام، وبعبارات الأستاذ الإمام «هو أفضل القوى الإنسانية على الحقيقة!».. فإن «العقلانية الإسلامية» ـ كما تجسدها فصول هذه (الرسالة) ـ تهيىء للإنسان المسلم، «بمقتضى دينه، أمرين عظيمين، طالما حرم منهما، وهما:

أ ـ استقلال الإرادة . .

ب ـ واستقلال الرأي والفكر . .

وبهما كانت إنسانيته!، وبهما استعد لأن يبلغ من السعادة ما هيأه الله له، بحكم الفطرة التي فطر عليها!»

ثم يعقب الأستاذ الإمام على ما يهيئه الإسلام للمسلم من استقلال في الإرادة، والرأي والفكر . . . فيستشهد بأقوال حكماء الحضارة الغربية التي تعزو نشأة المدنية الأوروبية إلى هذا الاستقلال! . . وكأنه بذلك يقول لنا: **إن نقطة البدء، ومصدر الانطلاق لمن يريد انهاض الأمة وتقدمها هما الإسلام . . الإسلام كما يفهمه ويفقهه عقل المسلم المستنير**، على النحو الذي تعرضه (رسالة التوحيد)! . .

تلك «إشارات» على ما في هذه (الرسالة) من أضواء تنير للمسلم عقله وطريقه . . وما بها من طاقات تدفع خطو هذه الأمة على درب تحررها العقلي وتقدمها الحضاري نحو الأمام! . .

فإلى القارئين العربي والمسلم نقدم هذه الطبعة المحققة لـ (رسالة التوحيد)، بعد أن قدمناها من قبل ضمن (الأعمال الكاملة) للأستاذ الإمام . .

ولعلها تكون خير تحية لذكرى هذا الإمام العظيم في مناسبة مرور ثلاثة أرباع القرن على وفاته في ١١ يوليو ١٩٠٥ م[٧] . . .

(٧) تاريخ طبعتنا الأولى لهذه الرسالة ـ مستقلة ـ ١٩٨٠ م.

فخير ما نحيي به ذكرى مجدد الإسلام أن نقدم للقارىء المسلم ما يجدد الإسلام! . .

وعلى الله قصد السبيل . . فهو ولي العون والتوفيق . . .

دكتور

محمد عمارة

بسم الله الرَّحمٰن الرَّحِيم

تمهيد

﴿الحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالمِينَ، الرَّحمنِ الرَّحِيم مَالكِ يوم الدينِ، إِيَّاكَ نَعبُدُ وإِيَّاكَ نستَعِينُ، اهْدنا الصِّراطَ المُستَقِيمَ، صِرَاطَ الذِين أنعَمتَ عَليْهم، غَيرِ المغضُوبِ عَليْهم وَلا الضَّالين.﴾

(وبعد).. فلما كنت في بيروت، من أعمال سوريا، أيام بعدي عن مصر، عقب حوادث سنة ١٢٩٩ هجرية[١] ودعيت في سنة ١٣٠٣[٢] لتدريس بعض العلوم في المدرسة السلطانية، ومنها علم التوحيد، رأيت أن المختصرات في هذا الفن لا تأتي على الغرض من إفادة التلاميذ، والمطولات تعلو عن أفهامهم، والمتوسطات ألفت لزمن غير زمانهم.

فرأيت من الأليق أن أملي عليهم ما هو أمس بحالهم. فكانت أمالي مختلفة، تتغاير بتغاير طبقاتهم، أقر بها إلى كفاية الطالب ما أملي على الفرقة الأولى، في أسلوب لا يصعب تناوله، وإن لم يعهد تداوله، وسير منها إلى المطالب من غير

---

(١) الإشارة إلى حوادث الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ م.

(٢) الموافقة لسنة ١٨٨٥ ـ ١٨٨٦ م.

نظر إلا إلى صحة الدليل، وإن جاء في التعبير على خلاف ما عهد من هيئة التأليف، رامياً إلى الخلاف من مكان بعيد، حتى قد لا يدركه إلا الرجل الرشيد.

غير أن تلك الأمالي لم تحفظ إلا في دفاتر التلامذة، ولم أستبق لنفسي منها شيئاً، وعرض بعد ذلك ما استقدمني إلى مصر، وكان من تقدير الله أن أشتغل بغير التعليم، حتى أتى النسيان على ما أمليت، وذهب عن الخاطر جميع ما ألقيت، إلى أن خطر لي من مدة أشهر خاطر العود إلى ما تهواه نفسي، ويصبو إليه عقلي وحسي. وأن أشغل أوقات فراغي بمدارسة شيء من علم التوحيد، علماً مني أنه ركن العلم الشديد.

فذكرت سابق العمل، وتعلق بمثله الأمل، ولكيلا أنفق من الزمن ما أنا في أشد الحاجة إليه في إنشاء ما أرى التعويل عليه، عزمت أن أكتب إلى بعض التلامذة ليرسل إلي ما تلقاه بين يدي، وذكرت ذلك لأخي، فأخبرني أنه نسخ ما أملي على الفرقة الأولى، فطلبته وقرأته، فإذا هو على مقربة مما أحب، قد يحتاج إليه القاصر، وربما لا يستغني عنه المكاثر، على اختصار فيه مقصود، ووقوف عند حد من القول محدود، قد سلك في العقائد مسلك السلف، ولم يعب في سيره آراء الخلف، ويعد عن الخلاف بين المذاهب، بعد مم‍ليه عن أعاصير المشاغب.

لكن وجدت فيه إيجازاً في بعض المواضع، قد لا ينفذ منه ذهن المطالع، واغفالاً لبعض ما تمس الحاجة إليه، وزيادة عما يجب في مختصر مثله أن يقتصر عليه، فبسطت بعض عباراته، وحررت ما غمض من مقدماته، وزدت ما أغفل، وحذفت ما

فضل، وتوكلت على الله في نشره، راجياً ألا يكون في قصره ما يحمل على إغفال أمره، أو يغض من قدره، فما من أحد بأصغر من أن يعين، ولا بأكبر من أن يعان، والله وحده ولي الأمر وهو المستعان.

مقدمات

التوحيد: علم يبحث فيه عن وجود الله، وما يجب أن يثبت له من صفاته، وما يجب أن ينفى عنه، وعن الرسل، لإثبات رسالتهم، وما يجب أن يكونوا عليه،وما يجوز أن ينسب إليهم، وما يمتنع أن يلحق بهم.

أصل معنى التوحيد:

اعتقاد أن الله واحد، لا شريك له. وسمي هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه، وهو اثبات الوحدة لله في الذات والفعل في خلقه الأكوان، وأنه وحده مرجع كل كون، ومنتهى كل قصد.

وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبي ﷺ، كما تشهد به آيات الكتاب العزيز، وسيأتي بيانه.

وقد يسمى علم الكلام، إما لأن أشهر مسألة وقع فيها الخلاف بين علماء القرون هي أن كلام الله المتلو حادث أو قديم، وإما لأن مبناه الدليل العقلي، وأثره يظهر من كل متكلم في كلامه، وقلما يرجع فيه إلى النقل، اللهم إلا بعد تقرير الأصول الأولى، ثم الانتقال منها إلى ما هو أشبه بالفرع عنها، وإن كان أصلاً لما يأتي بعدها، وإما لأنه في بيان طرق الاستدلال على أصول الدين أشبه بالمنطق في تنبيه مسالك

الحجة في علوم أهل النظر، وأبدل المنطق بالكلام للتفرقة بينهما.

هذا النوع من العلم، علم تقرير العقائد، وبيان ما جاء في النبوات، كان معروفاً عند الأمم قبل الإسلام، ففي كل أمة كان القائمون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأييده، وكان البيان من أول وسائلهم إلى ذلك، لكنهم كانوا قلما ينحون في بيانهم نحو الدليل العقلي، وبناء آرائهم وعقائدهم على ما في طبيعة الوجود أو ما يشتمل عليه نظام الكون، بل كانت منازع العقول في العلم ومضارب الدين في الإلزام بالعقائد، وتقريبها من مشاعر القلوب على طرفي نقيض، وكثيراً ما صرح الدين على لسان رؤسائه: أنه عدو العقل، نتائجه ومقدماته، فكان جل ما في علوم الكلام تأويلاً وتفسيراً وإدهاشاً بالمعجزات، أو إلهاء بالخيالات، يعلم ذلك من له إلمام بأحوال الأمم قبل البعثة الإسلامية.

* * *

جاء القرآن فانتهج بالدين منهجاً لم يقم عليه ما سبقه من الكتب المقدسة، منهجاً يمكن لأهل الزمن الذي أنزل فيه، ولمن يأتي بعدهم أن يقوموا عليه، فترك الاستدلال على نبوة النبي ﷺ، بما عهد الاستدلال به على النبوات السابقة، وحصر الدليل في حال النبي، مع نزول الكتاب عليه في شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن محاكاته فيه، ولو في مثل أقصر سورة منه، وتناول من مقام الألوهية ما أذن الله لنا وما أوجب علينا أن نعلم.

لكن لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته، ادعى

وبرهن، وحكى مذاهب المخالفين، وكر عليها بالحجة، وخاطب العقل، واستنهض الفكر، وعرض نظام الأكوان وما فيها من الإحكام والإتقان على أنظار العقول، وطالبها بالإمعان فيها، لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه، حتى أنه في سياق قصص أحوال السابقين كان يقرر أن للخليقة سنة لا تغير وقاعدة لا تتبدل، فقال:

﴿سُنَّةَ الله التي قَدْ خَلَتْ من قَبْلُ ولن تَجِدَ لِسنةِ الله تبديلا﴾[1]. وصرح: **﴿إن الله لا يُغَيِّرُ ما بقوم حتَّى يغيروا مَا بأنفُسهم﴾**[2]، واعتضد بالدليل حتى في بابِ الأدب، فقال: **﴿ادفع بِالتي هِيَ أحسَنُ فإذا الذِي بَينكَ وَبَينه عَدَاوةٌ كأنَّه وليّ حميم﴾**[3].

وتآخى العقل والدين لأول مرة في كتاب مقدس، على لسان نبي مرسل، بتصريح لا يقبل التأويل، وتقرر بين المسلمين كافة ـ إلا من لا ثقة بعقله ولا بدينه ـ أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل، كالعلم بوجود الله، وبقدرته على إرسال الرسل، وعلمه بما يوحي به إليهم، وإرادته لاختصاصهم برسالته، وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة، وكالتصديق بالرسالة نفسها.

كما أجمعوا على أن الدين إن جاء بشيء قد يعلو على الفهم

---

(١) سورة الفتح: الآية ٢٣.
(٢) سورة الرعد: الآية ١١.
(٣) سورة فصلت: الآية ٢٤.

فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل عند العقل.

* * *

جاء القرآن يصف الله بصفات، وإن كانت أقرب إلى التنزيه مما وصف به في مخاطبات الأجيال السابقة، فمن صفات البشر ما يشاركها في الاسم، أو في الجنس، كالقدرة، والاختيار، والسمع، والبصر، وعزا إليه أموراً يوجد ما يشبهها في الإنسان كالاستواء على العرش، وكالوجه واليدين، ثم أفاض في القضاء السابق، وفي الاختيار الممنوح للإنسان، وجادل الغالين من أهل المذهبين. ثم جاء بالوعد والوعيد على الحسنات والسيئات، ووكل الأمر في الثواب والعقاب إلى مشيئة الله، وأمثال ذلك مما لا حاجة إلى بيانه في هذه المقدمة.

فاعتبار حكم العقل مع ورود أمثال هذه المتشابهات في النقل فسح مجالاً للناظرين، خصوصاً ودعوة الدين إلى الفكر في المخلوقات لم تكن محدودة بحد ولا مشروطة بشرط، للعلم بأن كل نظر صحيح فهو مؤد إلى الاعتقاد بالله على ما وصفه بلا غلو في التجريد ولا دنو في التحديد[٤].

---

(٤) التجريد هنا يراد به الذهاب في تنزيه الله عن مشابهة الحوادث، وعن الاتصاف بالصفات الزائدة على الذات، إلى الحد الذي يصبح فيه تصور الذات الإلهية كفكرة مجردة عن الصفات والتحديدات... ونحن نجد هذا التجريد عند المعتزلة وكل من وافقهم في التنزيه، وبالذات عند الفلاسفة الإلهيين.. فابن رشد مثلاً يتصور الذات الإلهية عقلاً للعالم، وعلماً محضاً ونظاماً هو أشبه بالقوانين التي تحكم الوجود وتحفظه وتهيمن عليه.. انظر تصوره للذات الإلهية في دراستنا «المادية والمثالية في فلسفة ابن رشد» طبعة دار المعارف. القاهرة سنة ١٩٧١ م. أما التحديد فإننا نجده بدرجات متفاوتة عند المشبهة والمجسمة وبعض القائلين بالحلول والاتحاد.

مضى زمن النبي ﷺ، وهو المرجع في الحيرة والسراج في ظلمات الشبهة، وقضى الخليفتان بعده ما قدر لهما من العمر في مدافعة الأعداء، وجمع كلمة الأولياء، ولم يكن للناس من الفراغ ما يخلون فيه مع عقولهم يبتلونها[٥] بالبحث في مباني عقائدهم. وما كان من اختلاف قليل رد إليهما، وقضي الأمر فيه بحكمهما، بعد استشارة من جاورهما من أهل البصر بالدين، إن كانت حاجة إلى الاستشارة، وأغلب الخلاف كان في فروع الأحكام لا في أصول العقائد، ثم كان الناس في الزمنين يفهمون إشارات الكتاب ونصوصه، يعتقدون بالتنزيه، ويفوضون فيما يوهم التشبيه. ويرون أن له معنى غير ما يُفهمه ظاهر اللفظ.

كان الأمر على ذلك إلى أن حدث ما حدث في عهد الخليفة الثالث، وأفضى إلى قتله، هوى بتلك الأحداث ركن عظيم من هيكل الخلافة، واصطدم الإسلام بأهله صدمة زحزحتهم عن الطريق التي استقاموا عليها، وبقي القرآن قائماً على صراطه ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾[٦]، وفتح للناس باب لتعدي الحدود التي حدها الدين، فقد قتل الخليفة بدون حكم شرعي، وأشعر الأمر قلوب العامة أن شهوات تلاعبت بالعقول في أنفس من لم يملك الإيمان قلوبهم، وغلب الغضب على كثير من الغالين في دينهم، وتغلب هؤلاء وأولئك على أهل الأصالة منهم فقضيت أمور على غير ما يحبون.

---

(٥) يمتحنونها ويمحصونها.

(٦) سورة الحجر: الآية ٩

وكان من العاملين في تلك الفتنة عبد الله بن سبأ، يهودي أسلم وغلا في حب علي كرم الله وجهه، حتى زعم أن الله حل فيه، وأخذ يدعو إلى أنه الأحق بالخلافة، وطعن على عثمان، فنفاه إلى مصر، فوجد فيها أعواناً على فتنته، إلى أن كان ما كان مما ذكرنا، ثم ظهر بمذهبه في عهد علي فنفاه إلى المدائن، وكان رأيه جرثومة لما حدث من مذاهب الغلاة من بعده[٧].

توالت الأحداث بعد ذلك، ونقض بعض المبايعين للخليفة الرابع ما عقدوا، وكانت حروب بين المسلمين انتهى فيها أمر السلطان إلى الأمويين، غير أن بناء الجماعة قد انصدع، وانفصمت عرى الوحدة بينهم، وتفرقت بهم المذاهب في الخلافة، وأخذ الأحزاب في تأييد آرائهم، كل ينصر رأيه على رأي خصمه بالقول والعمل، وكانت نشأة الاختراع في الرواية والتأويل، وغلا كل قبيل، فافترق الناس إلى شيعة وخوارج ومعتزلين، وغلا الخوارج في عهد مروان الأول[٨] فكفروا من عداهم، ثم استمر عنادهم وطلبهم لحكومة أشبه بالجمهورية، وتكفيرهم لمن خالفهم زمناً طويلاً إلى أن تضعضع أمرهم على

---

(٧) من الباحثين من يشكك في وجود شخصية عبد الله بن سبأ أصلاً، أو على الأقل يرى أن الناس قد اتخذوا منها مشجباً يعلقون عليه الأخطاء حتى لا تلحق الشبهات بشخصيات عزيزة على القلوب من صحابة رسول الله، وحتى لا ترد المسببات إلى أسبابها الحقيقية، تلك الأسباب التي أثمرت أحداث عهد عثمان بن عفان. انظر في ذلك د. طه حسين «الفتنة الكبرى» جـ ١، ٢. طبعة دار المعارف. القاهرة.

(٨) هو مروان بن الحكم الأموي، حكم بعد معاوية الثاني (٦٨٣ ـ ٦٨٥ م).

يد المهلب بن أبي صفرة[٩]، وانتشرت فارتهم في بلاد المغرب فأشعلوا فيها الفتن، وبقيت منهم بقية إلى اليوم في أطراف إفريقيا وناحية من جزيرة العرب.

وغلا بعض الشيعة فرفعوا علياً أو بعض ذريته إلى مقام الألوهية أو ما يقرب منه، وتبع ذلك خلاف في كثير من العقائد.

غير أن شيئاً من ذلك لم يقف في سبيل الدعوة الإسلامية، ولم يحجب ضياء القرآن عن الأطراف المتنائية عن مثار النزاع، وكان الناس يدخلون فيه أفواجاً من الفرس والسوريين ومن جاورهم، والمصريين والإفريقيين ومن يليهم، واستراح جمهور عظيم من العمل في الدفاع عن سلطان الإسلام، وآن لهم أن يشتغلوا في أصول العقائد والأحكام بما هداهم إليه سير القرآن اشتغالاً يحرص فيه على النقل ولا يهمل فيه اعتبار العقل ولا يغض فيه من نظر الفكر، ووجد من أهل الإخلاص من انتدب نفسه للنظر في العلم والقيام بفريضة التعليم. ومن أشهرهم الحسن البصري[١٠]، فكان له مجلس للتعليم والإفادة في البصرة

---

(٩) من قواد الحجاج بن يوسف الثقفي، تمكن من هزيمة الخوارج الأزارقة بقيادة قطري بن الفجاءة الذين كانو قد امتلكوا «كرمان» وكانت الموقعة الفاصلة سنة ٦٩٨ م أو سنة ٦٩٩ م.

(١٠) هو الحسن بن أبي الحسن (٢١ ـ ١١٠ هـ ٦٤١ ـ ٧٢٨ م) واسم أبيه يسار، وكان أبوه من سبي «ميسان» وهي «كورة» بين «البصرة» و «واسط»، وكانت أمه مولاة لأم سلمة زوج الرسول عليه الصلاة والسلام، وكانت تعطيه ثديها في غياب أمه وهو رضيع، انظر (تهذيب التهذيب) لابن حجر العسقلاني جـ ٢ ص ٢٧٠ طبعة حيدر أباد بالهند سنة ١٣٢٥ هـ.

يجتمع إليه الطالبون من كل صوب وتمتحن فيه المسائل من كل نوع.

وكان قد التحف بالإسلام ولم يتبطنه أناس من كل ملة، دخلوه حاملين لما كان عندهم، راغبين أن يصلوا بينه وبين ما وجدوه، فثارت الشبهات بعد ما هبت على الناس أعاصير الفتن، واعتمد كل ناظر على ما صرح به القرآن من إطلاق العنان للفكر، وشارك الدخلاء من حق لهم السبق، من العرفاء، وبدت رؤوس المشاقين تعلو بين المسلمين.

وكانت أول مسألة ظهر الخلاف فيها مسألة الاختيار واستقلال الإنسان بإرادته وأفعاله الاختيارية، ومسألة من ارتكب الكبيرة، ولم يتب: اختلف فيها واصل بن عطاء[(١١)] مع أستاذه الحسن البصري، واعتزله، يعلم أصولاً لم يكن أخذها عنه، غير أن كثيراً من السلف ومنهم الحسن ـ على قول ـ كان على رأي أن العبد مختار في أعماله الصادرة عن علمه وإرادته[(١٢)]، وقام ينازع هؤلاء أهل الجبر الذين ذهبوا إلى أن الإنسان في عمله

---

(١١) هو أبو حذيفة واصل بن عطاء (٨٠ ـ ١٣١ هـ ٦٩٩ ـ ٧٤٩ م) الملقب بالغزال، من الموالي، ولد بالمدينة، ثم ذهب إلى البصرة، أخذ القول بحرية الإنسان واختياره عن معبد الجهني، وأخذ القول بالتنزيه عن جهم بن صفوان، وهو أول من تبلورت على يديه حركة المعتزلة التي ورثت تراث القائلين بالعدل والتوحيد. انظر: المنية والأمل لابن المرتضى ص ١٧ ـ ٢٠ طبعة الهند سنة ١٣١٦ هـ.

(١٢) تشهد بذلك رسالة له في «القدر» بعث بها إلى عبد الملك بن مروان. ولقد قمنا بتحقيقها ونشرها ضمن الجزء الأول من «رسائل العدل والتوحيد» طبعة «الشروق» في القاهرة، وفي الخلاف حول موقفه من هذه القضية انظر «تهذيب التهذيب» جـ ٢ ص ٢٧٠ و «المعارف» لابن قتيبة ص ٤٤٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠ م.

الإرادي كأغصان الشجرة في حركاتها الاضطرارية. كل ذلك وأرباب السلطان من بني مروان لا يحفلون بالأمر، ولا يعنون برد الناس إلى أصل، وجمعهم على أمر يشملهم ثم يذهب كل إلى ما شاء.

ثم لم يقف الخلاف عند المسألتين السابقتين، بل امتد إلى اثبات صفات المعاني للذات الإلهية أو نفيها عنها، وإلى تقدير سلطة العقل في معرفة الأحكام الدينية حتى ما كان منها فروعاً وعبادات (غلوا في تأييد خطة القرآن)، أو تخصيص تلك السلطة بالأصول الأولى، على ما سبق بيانه، ثم غالى آخرون، وهم الأقلون، فمحوها بالمرة، وخالفوا في ذلك طريقة الكتاب، عناداً للأولين[١٣]، وكانت الآراء في الخلفاء والخلافة تسير مع الآراء في العقائد كأنها مبنى من مباني الاعتقاد الإسلامي.

تفرقت السبل باتباع «واصل»، وتناولوا من كتب اليونان ما لاق بعقولهم، وظنوا من التقوى أن تؤيد العقائد بما أثبته العلم بدون تفرقة بين ما كان منه راجعاً إلى أوليات العقل وما كان سراباً في نظر الوهم، فخلطوا بمعارف الدين ما لا ينطبق حتى على أصل من أصول النظر، ولجوا في ذلك حتى صارت شيعهم تعد بالعشرات، أيدتهم الدولة العباسية وهي في ريعان القوة، فغلب رأيهم، وابتدأ علماؤهم يؤلفون الكتب، فأخذ المتمسكون

(١٣) الإشارة إلى «الظاهرية» ومدرسة «أهل الحديث» الذين أنكروا التأويل وإعمال العقل فيما وراء ظاهر النصوص.

بمذاهب السلف يناضلون معتصمين بقوة اليقين وإن لم يكن لهم عضد من الحاكمين.

عرف الأولون من العباسيين ما كان من الفرس في إقامة دولتهم وقلب دولة الأمويين، واعتمدوا على طلب الأنصار فيهم، وأعدوا لهم منصات الرفعة بين وزرائهم وحواشيهم، فعلا أمر كثير منهم وهم ليسوا من الدين في شيء. وكان فيهم «المانوية»[١٤] و «اليزدية»[١٥] ومن لا دين له وغير أولئك من الفرق الفارسية، فأخذوا ينفثون من أفكارهم، ويشيرون بحالهم وبمقالهم إلى من يرى مثل آرائهم أن يقتدوا بهم، فظهر الإلحاد وتطلعت رؤوس الزندقة حتى صدر أمر «المنصور»[١٦] بوضع كتب لكشف شبهاتهم وابطال مزاعمهم.

فيما حوالي هذا العهد كانت نشأة هذا العلم نبتاً لم يتكامل نموه، وبناء لم يتشامخ علوه، وبدأ كما انتهى مشوباً بمبادىء النظر في الكائنات جرياً على ما سنه القرآن من ذلك.

حدثت فتنة القول بخلق القرآن أو أزليته[١٧]، وانتصر للأولى جمع من خلفاء العباسيين، وأمسك عن القول، أو صرح

---

(١٤) ويقال لهم الثنوية، وهم القائلون بالنور والظلمة، وبقدمهما، واستقلالهما ونبيهم «ماني» الذي ظهر في عهد «سابورين أردشير بن بابك». وهم فرق متعددة. انظر: القاضي عبد الجبار «المغني في أبواب التوحيد والعدل» جـ ٥ ص ٩ ـ ٧٠.

(١٥) لعلها: المزدقية، وهي فرقة من فرق الثنوية. انظر المصدر السابق نفس الجزء والصفحات.

(١٦) المؤسس الحقيقي للدولة العباسية حكم من سنة ٧٥٤ م حتى سنة ٧٧٥ م.

(١٧) كان ذلك في عهد المأمون العباسي سنة ٢١٨ هـ.

بالأزلية عدد غفير من المتمسكين بظواهر الكتاب والسنة أو المتعففين عن النطق بما فيه مجاراة البدعة، وأهين في ذلك رجال من أهل العلم والتقوى، وسفكت فيه دماء بغير حق، وهكذا تعدى القوم حدود الدين باسم الدين، على هذا كان النزاع بين ما تطرف من نظر العقل وما توسط أو غلا من الاستمساك بظاهر الشرع، والكل على وفاق على أن الأحكام الدينية واجبة الاتباع، ما تعلق منها بالعبادات والمعاملات وجب الوقوف عنده، وما مس بواطن القلوب وملكات النفوس فرض التروض[١٨] عليه.

وكان وراء هؤلاء قوم من أهل الحلول أو الدهريين، طلبوا أن يحملوا القرآن على ما حملوه عند التحاقهم[١٩] بالإسلام، وأفرطوا في التأويل، وحولوا كل عمل ظاهر إلى سر باطن، وفسروا الكتاب بما يبعد عن تناول الخطاب بعد الخطأ عن الصواب، وعرفوا بالباطنية أو الإسماعيلية، ولهم أسماء أخر تعرف في التاريخ، فكانت مذاهبهم غائلة الدين وزلزال اليقين، وكانت لهم فتن معروفة وحوادث مشهورة.

مع اتفاق السلف وخصومهم في مقارعة هؤلاء الزنادقة وأشياعهم كان أمر الخلاف بينهم جللاً، وكانت الأيام بينهم دولاً، ولا يمنع ذلك من أخذ بعضهم عن بعض واستفادة كل

---

(١٨) بمعنى ترويض النفس وتعويدها وتطويعها عليه.

(١٩) يمكن أن تقرأ التحاقهم، بالقاف، والتحافهم، بالفاء، على معنى أنهم لم يؤمنوا به كما يجب أن يكون الإيمان.

فريق من صاحبه إلى أن جاء الشيخ أبو الحسن الأشعري[٢٠] في أوائل القرن الرابع، وسلك مسلكه المعروف وسطاً بين موقف السلف وتطرف من خالفهم، وأخذ يقرر العقائد على أصول النظر، وارتاب في أمره الأولون، وطعن كثير منهم على عقيدته، وكفره الحنابلة واستباحوا دمه، ونصره جماعة من أكابر العلماء، كإمام الحرمين[٢١]، والأسفراييني[٢٢]، وأبي بكر الباقلاني[٢٣] وغيرهما، وسموا رأيه بمذهب أهل السنة والجماعة، فانهزم من بين أيدي هؤلاء الأفاضل قوتان عظيمتان: قوة الواقفين عند الظواهر، وقوة الغالين في الجري خلف ما تزينه الخواطر، ولم يبق من أولئك وهؤلاء بعد قرنين إلا فئات قليلة في أطراف البلاد الإسلامية.

غير أن الناصرين لمذهب الأشعري، بعد تقريرهم ما بنى رأيه عليه من نواميس الكون، أوجبوا على المعتقد أن يوقن بتلك المقدمات ونتائجها كما يجب عليه اليقين بما تؤدي إليه من عقائد الإيمان ذهاباً منهم إلى أن عدم الدليل يؤدي إلى عدم المدلول.

---

(٢٠) (٢٦٠ - ٣٢٤ هـ ٨٧٣ - ٩٣٥ م)، ولد بالبصرة، وتوفي ببغداد، وكان شافعياً في المذهب الفقهي، وفي الكلام كان معتزلياً ثم خرج على المعتزلة ومن أهم كتبه «الإبانة عن أصول الديانة» و «مقالات الإسلاميين». انظر دائرة المعارف الإسلامية.

(٢١) هو أبو المعالي عبد الملك بن أبي محمد عبد الله بن يوسف الجويني، الفقيه الشافعي، وهو أستاذ الغزالي، ونسبته إلى «جوين» إحدى نواحي «نيسابور»، توفي سنة ٤٧٨ هـ.

(٢٢) المتوفى سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م).

(٢٣) المتوفى سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٣م).

ومضى الأمر على ذلك إلى أن جاء الإمام الغزالي[٢٤] والإمام الرازي[٢٥] ومن أخذ مأخذهما، فخالفوهم في ذلك، وقرروا أن دليلاً واحداً أو أدلة كثيرة قد يظهر بطلانها، ولكن قد يستدل على المطلوب بما هو أقوى منها فلا وجه للحجر في الاستدلال.

أما مذاهب الفلسفة فكانت تستمد آراءها من الفكر المحض، ولم يكن من هم أهل النظر من الفلاسفة، إلا تحصيل العلم والوفاء بما تندفع إليه رغبة العقل من كشف مجهول أو استكناه معقول، وكان يمكنهم أن يبلغوا من مطالبهم ما شاءوا، وكان الجمهور من أهل الدين يكنفهم بحمايته ويدع لهم من إطلاق الإرادة ما يتمتعون به في تحصيل لذة عقولهم، وإفادة الصناعة، وتقوية أركان النظام البشري بما يكشفون من مساتير الأسرار المكنونة في ضمائر الكون، مما أباح الله لنا أن نتناوله بعقولنا وأفكارنا في قوله: **﴿خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾**[٢٦]، إذ لم يستثن من ذلك ظاهراً ولا خفياً، وما كان عاقل من عقلاء المسلمين ليأخذ عليهم الطريق أو يضع العقبات في سبيلهم إلى ما هدوا إليه، بعدما رفع القرآن من شأن العقل وما وضعه من المكانة بحيث ينتهي إليه أمر السعادة والتمييز بين الحق والباطل والضار والنافع، وبعد ما صح من قوله عليه

---

(٢٤) (١٠٥٩ ـ ١١١٢ م) أشهر من أن يعرف.

(٢٥) المراد فخر الدين الرازي، وهو أبو الفضل محمد بن عمر بن الحسين، المعروف بابن الخطيب، ولد بمدينة الري سنة ٥٤٤ هـ أو سنة ٥٤٣ هـ وتوفي سنة ٦٠٦ هـ.

(٢٦) سورة البقرة: الآية ٢٩.

السلام: «أنتم أعلم بشؤون دنياكم» ويعد ما سن لنا في غزوة بدر من سنة الأخذ بما صدق من التجارب وصح من الآراء[٢٧].

لكن يظهر أن أمرين غلبا على غالبهم.

الأول: الاعجاب بما نقل إليهم عن فلاسفة اليونان، خصوصاً عن أرسطو وأفلاطون، ووجد أن اللذة في تقليدها لبادىء الأمر.

والثاني: روح الوقت[٢٨]، وهو أشأم الأمرين، زجوا بأنفسهم في المنازعات التي كانت قائمة بين أهل النظر في الدين، واصطدموا بعلومهم في قلة عددهم مع ما انطبعت عليه نفوس الكافة، فمال حماة العقائد عليهم، وجاء الغزالي[٢٩] ومن على طريقته فأخذوا جميع ما وجد في كتب الفلاسفة مما يتعلق بالإلهيات وما يتصل بها من الأمور العامة أو أحكام الجواهر والأعراض ومذاهبهم في المادة وتركيب الأجساد وجميع ما ظنه المشتغلون بالكلام يمس شيئاً من مباني الدين، واشتدوا في نقده، وبالغ المتأخرون منهم في تأثرهم حتى كاد يصل السير إلى ما وراء الاعتدال. فسقطت منزلتهم من النفوس ونبذتهم العامة ولم تحفل بهم الخاصة، وذهب الزمان بما كان ينتظر العالم الإسلامي من سعيهم.

---

(٢٧) الإشارة إلى أخذ الرسول برأي بعض الصحابة في مكان النزول ببدر، وعدوله عن رأيه هو في المنزل الذي كان قد اختاره للنزول.

(٢٨) أي روح العصر وطابعه.

(٢٩) الإشارة هنا إلى كتابه «تهافت الفلاسفة».

هذا هو السبب في خلط مسائل الكلام بمذاهب الفلسفة في كتب المتأخرين، كما تراه في كتب البيضاوي[٣٠] والعضد[٣١] وغيرهما، وجمع علوم نظرية شتى وجعلها جميعاً علماً واحداً، والذهاب بمقدماته ومباحثه إلى ما هو أقرب إلى التقليد من النظر فوقف العلم عن التقدم.

ثم جاءت فتن طلاب الملك من الأجيال المختلفة، وتغلب الجهال على الأمر وفتكوا بما بقي من أثر العلم النظري النابع من عيون الدين الإسلامي، فانحرفت الطريق بسالكيها، ولم يعد بين الناظرين في كتب السابقين إلا تحاور في الألفاظ وتناظر في الأساليب، على أن ذلك في قليل من الكتب اختارها الضعف وفضلها القصور.

ثم انتشرت الفوضى العقلية بين المسلمين تحت حماية الجهلة من ساستهم، فجاء قوم ظنوا في أنفسهم ما لم يعترف به العلم لهم، فوضعوا ما لم يعد للإسلام قبل باحتماله، غير أنهم وجدوا من نقص المعارف أنصاراً، ومن البعد عن ينابيع الدين أعواناً، فشردوا بالعقول عن مواطنها، وتحكموا في التضليل والتكفير، وغلوا في ذلك حتى قلدوا بعض من سبق من الأمم في دعوى العداوة بين العلم والدين، وقالوا لما تصف ألسنتهم الكذب هذا حلال وهذا حرام، وهذا كفر وهذا إسلام، والدين من وراء ما يتوهمون، والله جل شأنه، فوق ما يظنون وما

---

(٣٠) هو أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، المتوفى سنة ٧٩١ هـ.

(٣١) هو العضد الأيجي، صاحب الموسوعة الشهيرة «المواقف»، توفي سنة ٧٥٦ هـ سنة ١٣٥٥ م.

يصفون. ولكن ماذا أصاب العامة في عقائدهم ومصادر أعمالهم من أنفسهم، وبعد طول الخبط وكثرة الخلط؟؟ شر عظيم وخطب عميم.

هذا مجمل من تاريخ هذا العلم ينبئك كيف أسس على قواعد من الكتاب المبين، وكيف عبثت به في نهاية أمره أيدي المفرقين، حتى خرجوا به عن قصده، وبعدوا به عن حده، والذي علينا اعتقاده **أن الدين الإسلامي دين توحيد في العقائد لا دين تفريق في القواعد، العقل من أشد أعوانه، والنقل من أقوى أركانه**، وما وراء ذلك فنزغات شياطين أو شهوات سلاطين، والقرآن شاهد على كل بعمله، قاض عليه في صوابه وخطله.

* * *

الغاية من هذا العلم: القيام بفرض مجمع عليه، وهو معرفة الله تعالى بصفاته، الواجب ثبوتها له، مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به، والتصديق برسله على وجه اليقين الذي تطمئن به النفس اعتماداً على الدليل، لا استرسالاً مع التقليد، حسبما أرشدنا إليه الكتاب، **فقد أمر بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون، وما يمكن النفوذ إليه من دقائقه، تحصيلاً لليقين بما هدانا إليه، ونهانا عن التقليد بما حكي عن أحوال الأمم في الأخذ بما عليه آباؤهم، وتبشيع ما كانوا عليه من ذلك واستتباعه لهدم معتقداتهم وإمحاء وجودهم الملي، وحق ما قال، فإن التقليد كما يكون في الحق يأتي في الباطل، وكما يكون في النافع يحصل في الضار فهو مضلة يعذر فيها الحيوان ولا تجمل بحال الإنسان.**

أقسام المعلوم

يقسمون المعلوم إلى ثلاثة أقسام:

ممكن لذاته.

وواجب لذاته.

ومستحيل لذاته.

ويعرفون المستحيل بما عدمه لذاته من حيث هي، أما الواجب فهو ما كان وجوده لذاته من حيث هي، والممكن ما لا وجود له ولا عدم من ذاته، وإنما يوجد لموجود ويعدم لعدم سبب وجوده، وقد يعرض له الوجوب والاستحالة لغيره، وإطلاق المعلوم على المستحيل ضرب من المجاز، فإن المعلوم حقيقة لا بد أن يكون له كون في الواقع ينطبق عليه العلم، والمستحيل ليس من هذا القبيل كما تراه في أحكامه، وإنما المراد ما يمكن الحكم عليه وإن في صورة يخترعها له العقل ليتوصل بها إلى الحكاية عنه.

حكم المستحيل

وحكم المستحيل لذاته: ألا يطرأ عليه وجود، فإن العدم من لوازم ماهيته من حيث هي، فلو طرأ الوجود عليه لسلب لازم الماهية من حيث هي عنها، وهو يؤدي إلى سلب الماهية عن نفسها بالبداهة، فالمستحيل لا يوجد، فهو ليس بموجود قطعاً، بل لا يمكن للعقل أن يتصور له ماهية كائنة كما أشرنا إليه، فهو ليس بموجود حتى ولا في الذهن.

أحكام الممكن

من أحكام الممكن لذاته: ألا يوجد إلا بسبب وألا ينعدم إلا بسبب، وذلك لأنه لا واحد من الأمرين له لذاته فنسبتهما إلى ذاته على السواء، فإن ثبت له أحدهما بلا سبب لزم رجحان أحد المتساويين على الآخر بلا مرجح وهو محال بالبداهة.

ومن أحكامه أنه إن وجد يكون حادثاً لأنه قد ثبت أنه لا يوجد إلا بسبب، فإما أن يتقدم وجوده على وجود سببه أو يقارنه أو يكون بعده، والأول باطل، وإلا لزم تقدم المحتاج على ما إليه الحاجة، وهو إبطال لمعنى الحاجة، وقد سبق الاستدلال على ثبوتها، فيؤدي إلى خلاف المفروض، والثاني كذلك، والإلزام يساويهما في رتبة الوجود فيكون الحكم على أحدهما بأنه أثر والثاني مؤثر ترجيحاً بلا مرجح، وهو مما لا يسوغه العقل، على أن علّيّة أحدهما ومعلولية الآخر رجحان بلا مرجح، وهو باطل بالبداهة، فتعين الثالث، وهو أن يكون وجوده بعد وجود سببه، فيكون مسبوقاً بالعدم في مرتبة وجود السبب، فيكون حادثاً، إذ الحادث ما سُبق وجوده بالعدم، فكل ممكن حادث إن وجد.

الممكن لا يحتاج في عدمه إلى سبب وجودي، لأن العدم سلب، والسلب لا يحتاج إلى إيجاد بداهة، فيكون عدم الممكن لعدم التأثير فيه لعدم ما كان سبباً في بقائه، أما في وجوده فيحتاج إلى سبب وجودي، لأن العدم لا يكون مصدراً للوجود، فالموجود إن حدث فإنما يكون حدوثه بإيجاد، وذلك كله بديهي.

كما يحتاج الممكن للسبب في وجوده ابتداء يحتاج إليه في البقاء، لما بينا أن ذات الممكن لا تقتضي الوجود، ولا يرجح لها الوجود عن العدم إلا للسبب الخارجي الوجودي، فذلك لازم من لوازم ماهية الإمكان لا يفارقها من حيث هي، فلا يكون للممكن حالة يقتضي فيها الوجود لذته، فيكون في جميع أحواله محتاجاً إلى مرجح للوجود عن العدم، لا فرق بين الابتداء والبقاء.

معنى السبب على ما ذكرنا منشأ الإيجاد، ومعطى الوجود، وهو الذي يعبر عنه بالموجد، وبالعلة الموجدة، وبالعلة الفاعلة، وبالفاعل الحقيقي، ونحو ذلك من العبارات التي تختلف مبانيها ولا تتباين معانيها.

وقد يطلق السبب أحياناً على الشرط أو المعد الذي يهيىء الممكن لقبول الإيجاد من موجده، وهو بهذا المعنى قد يحتاج إليه في الابتداء ويستغني عنه في البقاء، وقد تكون الحاجة إلى وجوده ثم عدمه، ومن هذا القبيل وجود البنّاء، فإنه شرط في وجود البيت، وقد يموت البنّاء ويبقى بناؤه، وليس البنّاء واهب الوجود للبيت، وإنما حركات يديه وحركات ذهنه وأطوار إرادته شرط لوجود البيت على هيئته الخاصة به، وبالجملة فيوجد فرق بين توقف الممكن على شيء وبين استفادته الوجود من شيء، فالتوقف قد يكون على وجود ثم عدم، كما في توقف الخطوة الثانية على الأولى، فإن الأولى، ليست واهبة الوجود للثانية، وإلا وجب وجودها معها مع أن الثانية لا توجد إلا إذا انعدمت الأولى، أما استفادة الوجود فتقضي سبقاً للمالك للوجود يعطيه

للمستفيد منه وأن يكون وجود المستفيد مستمداً من وجود الواهب لا يقوم إلا به فلا يستقل بنفسه دونه في حال من الأحوال.

الممكن موجود قطعاً

نرى أشياء توجد بعد أن لم تكن، وأخرى تنعدم بعد أن كانت، كأشخاص النباتات والحيوانات، فهذه الكائنات إما مستحيلة أو واجبة أو ممكنة، لا سبيل إلى الأول لأن المستحيل لا يطرأ عليه الوجود، ولا إلى الثاني لأن الواجب له الوجود من ذاته، وما بالذات لا يزول، فلا يطرأ عليه العدم ولا يسبقه، كما سيجيء في أحكام الواجب: فهي ممكنة، فالممكن موجود قطعاً.

وجود الممكن يقتضي بالضرورة وجود الواجب

جملة الممكنات الموجودة ممكنة بداهة، وكل ممكن محتاج إلى سبب يعطيه الوجود، فجملة الممكنات الموجودة محتاجة بتمامها إلى موجد لها، فإما أن يكون عينها، . وهو محال لاستلزامه تقدم الشيء على نفسه، وإما أن يكون جزأها، وهو محال لاستلزامه أن يكون الشيء سبباً لنفسه ولما سبقه إن لم يكن الأول ولنفسه فقط إن فرض أول، وبطلانه ظاهر، فوجب أن يكون السبب وراء جملة الممكنات، والموجود الذي ليس بممكن هو الواجب، إذ ليس وراء الممكن إلا المستحيل والواجب، والمستحيل لا يوجد، فيبقى الواجب، فثبت أن للممكنات الموجودة موجداً واجب الوجود.

وأيضاً الممكنات، سواء كانت متناهية أو غير متناهية قائمة بوجود، فذلك الوجود إما أن يكون مصدره ذات الإمكان وماهيات الممكنات، وهو باطل لما سبق في أحكام الممكن من أنه لا شيء من الماهيات الممكنة بمقتض للوجود، فتعين أن يكون مصدره سواها وهو الواجب بالضرورة.

أحكام الواجب

صفات البرهان التي يجب الاعتقاد بها

القدم . . والبقاء . . ونفي التركيب

من أحكام الواجب: أن يكون قديماً أزلياً، لأنه لو لم يكن كذلك لكان حادثاً، والحادث ما سُبق وجوده بالعدم، فيكون وجوده مسبوقاً بعدم، وكل ما سُبق بالعدم يحتاج إلى علة تعطيه الوجود، وإلا لزم رجحان المرجوح بلا سبب، وهو محال، فلو لم يكن الواجب قديماً لكان محتاجاً في وجوده إلى موجد غيره، وقد سبق أن الواجب ما وجوده لذاته، فلا يكون ما فرض واجباً واجباً، وهو تناقض محال.

ومن أحكامه ألا يطرأ عليه عدم، وإلا لزم سلب ما هو للذات عنها، وهو يعود إلى سلب الشيء عن نفسه، وهو محال بالبداهة.

من أحكامه ألا يكون مركباً، إذ لو تركب لتقدم وجود كل جزء من أجزائه على وجود جملته التي هي ذاته، وكل جزء من أجزائه غير ذاته بالضرورة، فيكون وجوده جملة محتاجاً إلى وجود غيره، وقد سبق أن الواجب ما كان وجوده لذاته، ولأنه لو تركب لكان الحكم له بالوجود موقوفاً على الحكم بوجود

أجزائه، وقد قلنا إنه له لذاته من حيث هي ذاته، ولأنه لا مرجح لأن يكون الوجوب له دون كل جزء من أجزائه، بل يكون الوجوب لها أرجح فتكون هي الواجبة دونه.

نفي التركيب في الواجب شامل لما يسمونه حقيقة عقلية أو خارجية، فلا يمكن للعقل أن يحاكي ذات الواجب بمركب، فإن الأجزاء العقلية لا بد لها من منشأ انتزاع في الخارج، فلو تركبت الحقيقة العقلية لكانت الحقيقة مركبة في الخارج وإلا كانت ما فرض حقيقة عقلية اعتباراً كاذب الصدق لا حقيقة.

كما لا يكون الواجب مركباً لا يكون قابلاً للقسمة في أحد الامتدادات الثلاث، أي لا يكون له امتداد، لأنه لو قبل القسمة لعاد بها إلى غير وجوده الأول، وصار إلى وجودات متعددة، وهي وجودات الأجزاء الحاصلة من القسمة، فيكون ذلك قبولاً للعدم أو تركباً، وكلاهما محال كما سبق.

الحياة

معنى الوجود وإن كان بديهياً عند العقل لكنه يتمثل لها بالظهور ثم الثبات والاستقرار، وكمال الوجود وقوته بكمال هذا المعنى وقوته بالبداهة.

كل مرتبة من مراتب الوجود تستتبع بالضرورة من الصفات الوجودية ما هو كمال لتلك المرتبة في المعنى السابق ذكره، وإلا كان الوجود لمرتبة سواها، وقد فرض لها. ما يتجلى للنفس من مثل الوجود لا ينحصر، وأكمل مثل في أي مراتبه ما كان مقروناً بالنظام والكون على وجه ليس فيه خلل ولا تشويش، فإن كان

ذلك النظام بحيث يستتبع وجوداً مستمراً وإن في النوع، كان أدل على كمال المعنى الوجودي في صاحب المثال.

فإن تجلت للنفس مرتبة من مراتب الوجود على أن تكون مصدراً لكل نظام كان ذلك عنواناً على أنها أكمل المراتب وأعلاها وأرفعها وأقواها.

وجود الواجب هو مصدر كل وجود ممكن كما قلنا، وظهر بالبرهان القاطع، فهو بحكم ذلك أقوى الوجودات وأعلاها، فهو يستتبع من الصفات الوجودية ما يلائم تلك المرتبة العليا.

وكل ما تصوره العقل كمالاً في الوجود من حيث ما يحيط به من معنى الثبات والاستقرار والظهور، وأمكن أن يكون له، وجب أن ثبت له، وكونه مصدراً للنظام وتصريف الأعمال على وجه لا اضطراب فيه يعد من كمال الوجود كما ذكرنا، فيجب أن يكون ذلك ثابتاً له، فالوجود الواجب يستتبع من الصفات الوجودية التي تقتضيها هذه المرتبة ما يمكن أن يكون له.

فمما يجب أن يكون له صفة الحياة، وهي صفة تستتبع العلم والإرداة، وذلك أن الحياة مما يعتبر كمالاً للوجود بداهة، فإن الحياة مع ما يتبعها مصدر النظام، وناموس الحكمة، وهي في أي مراتبها مبدأ الظهور والاستقرار في تلك المرتبة، فهي كمال وجودي، ويمكن أن يتصف بها الواجب، وكل كمال وجودي يمكن أن يتصف به وجب أن يثبت له، فواجب الوجود حي، وإن باينت حياته حياة الممكنات، فإن ما هو كمال للوجود إنما هو مبدأ العلم والإرادة. ولو لم تثبت له هذه الصفة لكان في

الممكنات ما هو أكمل منه وجوداً وقد تقدم أنه أعلى الموجودات وأكملها فيه.

والواجب هو واهب الوجود وما يتبعه، فكيف لو كان فاقداً للحياة يعطيها؟ فالحياة له كما أنه مصدرها.

العلم

ومما يجب له: صفة العلم، ويراد به ما به انكشاف شيء عند من ثبتت له تلك الصفة، أي مصدر ذلك الإنكشاف منه، لأن العلم من الصفات الوجودية التي تعد كمالاً في الوجود، ويمكن أن تكون للواجب، وكل ما كان كذلك وجب أن يثبت له، فواجب الوجود عالم.

ثم البداهة قاضية بأن العلم كمال في الموجودات الممكنة، ومن الممكنات من هو عالم، فلو لم يكن الواجب عالماً لكان في الموجودات الممكنة ما هو أكمل من الموجود الواجب، وهو محال كما قدمنا.

ثم هو واهب العلم في عالم الإمكان، ولا يعقل أن مصدر العلم يفقده.

علم الواجب من لوازم وجوده، كما ترى، فيعلو على العلوم علو وجوده عن الموجودات، فلا يتصور في العلوم ما هو أعلى منه، فيكون محيطاً بكل ما يمكن علمه، وإلا تصور العقل علماً أشمل، وهو إنما يكون لوجود أكمل، وهو محال.

ما هو لازم لوجود الواجب يفنى بفنائه ويبقى ببقائه، وعلم الواجب من لوازم وجوده، فلا يفتقر إلى شيء ما وراء ذاته، فهو

أزلي، أبدي، غني عن الآلات، وجولات الفكر، وأفاعيل النظر، فيخالف علوم الممكنات بالضرورة.

ما يوجد من الممكنات فهو موافق لما انكشف بذلك العلم، وإلا لم يكن علماً.

من أدلة ثبوت العلم للواجب ما نشاهده في نظام الممكنات من الإحكام والاتقان ووضع كل شيء في موضعه، وقرن كل ممكن بما يحتاج إليه في وجوده وبقائه، وذلك ظاهر لجلي النظر مما يشاهد في الأعيان، كبيرها وصغيرها، علويها وسفليها، هذه الروابط بين الكواكب، والنِّسب الثابتة بينها، وتقدير حركاتها على قاعدة تكفل لها البقاء على الوضع الذي قدر لها، وإلزام كل كوكب بمدار لو خرج عنه لاختل نظام عالمه أو العالم بأسره، وغير ذلك مما فصل في علوم الهيئة الفلكية، كل ذلك يشهد بعلم صانعه وحكمة مدبره.

اعتبر بما تراه في جزئيات النباتات والحيوانات من توفيتها قواها، وإيتائها ما تحتاج إليه في تقويم وجودها من الآلات والأعضاء، ووضع ذلك في مواضعه من أبدانها، وإيداع غير الحساس منها، كالنبات، قوة الميل إلى تناول ما يناسبه من الغذاء دون ما لا يلائمه، فترى بذرة الحنظل تدفن بجوار حبة البطيخ في أرض واحدة، ثم تسقى بماء واحد، وتنمى بعناية واحدة، ولكن تلك تمتص من المواد ما يغذي المر الزعاف وهذه تتناول ما يغدو حلو المذاق. وإرشاد الحساس منها إلى استعمال ما منح من تلك الأدوات والأعضاء، وسوق كل قوة من قواه إلى ما قدرت له، فهو الذي يعلم حال الجنين وهو

نطفة أو علقة، ويعلم بحاجته، متى تكامل خلقه وأنشأه نشأة الحي المستقل في عمله، إلى الأيدي والأرجل والأعين والمشام والآذان وبقية المشاعر الباطنة، ليستعمل ذلك فيما يقيم وجوده ويقيه من العوادي عليه، وحاجته إلى المعدة والقلب والكبد والرئة ونحوها من الأعضاء التي لا غنى عنها في النمو والبقاء إلى الأجل المحدود للشخص أو للنوع، وهو الذي يعلم حالة الجروة من الكلاب، مثلاً، وأنها متى كبرت تلد الجراء متعددة فيمنحها أطباء[1] متكثرة، وغير ذلك مما لا يُستطاع إحصاؤه، وقد فصل الكثير منه في كتب النباتات وحياة الحيوان وما يسمى التاريخ الطبيعي وفنون منافع الأعضاء والطب وما يتبعه، على أن الباحثين في كل ذلك بعد ما بذلوا من الجهد وما صرفوا من الهمم وما كشفوا من الأسرار لم يزالوا في أول البحث.

هذا الصنيع الذي إنما تتفاضل العقول في فهم أسراره، والوقوف على دقائق حِكَمه، ألا يدل على أن مصدره هو العالم بكل شيء؟ الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى؟، هل يمكن لمجرّد الاتفاق المسمى بالصدفة أن يكون ينبوعاً لهذا النظام، وواضعاً لتلك القواعد التي يقوم عليها وجود الأكوان، عظيمها وحقيرها؟ كلا . . بل مبدع ذلك كله هو من لا يعزب عن عمله مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم.

---

(١) مفردها طبي، بضم الطاء وكسرها مع سكون الباء، وهو حلمة المرضع، المراد هنا كثرة حلمات الكلبة كي ترضع الجراء الكثيرة في وقت واحد.

الإرادة

مما يجب لواجب الوجود: الإرادة، وهي صفة تخصص فعل العالم بأحد وجوهه الممكنة. بعد ما ثبت أن واهب وجود الممكنات هو الواجب، وأنه عالم، وأن ما يوجد من الممكن لا بد أن يكون على وفق علمه، ثبت بالضرورة أنه مريد، لأنه إنما يفعل على حسب علمه. ثم إن كل موجود فهو على قدر مخصوص وصفة معينة، وله وقت ومكان محدودان، وهذه وجوه قد خصصت له دون بقية الوجوه الممكنة، وتخصيصها كان على وفق العلم بالضرورة، ولا معنى للإرادة إلا هذا.

أما ما يعرف من معنى الإرادة، وهو ما به يصح للفاعل أن ينفذ ما قصده، وأن يرجع عنه، فذلك محال في جانب الواجب، فإن هذا المعنى من الهموم الكونية، والعزائم القابلة للفسخ، وهي من توابع النقص في العلم، فتتغير على حسب تغير الحكم وتردد الفاعل بين البواعث على الفعل والترك.

القدرة

ومما يجب له: القدرة، وهي صفة بها الإيجاد والإعدام. ولما كان الواجب هو مبدع الكائنات على مقتضى علمه وإرادته، فلا ريب يكون قادراً بالبداهة، لأن فعل العالم المريد فيما علم وأراد إنما يكون بسلطة له على الفعل ولا معنى للقدرة إلا هذا السلطان.

الاختيار

ثبوت هذه الصفات الثلاث يستلزم بالضرورة ثبوت

الاختيار، إذ لا معنى له إلا اصدار الأمر بالقدرة على مقتضى العلم، وعلى حكم الإرادة فهو الفاعل المختار ليس من أفعاله ولا من تصرفه في خلقه ما يصدر عنه بالعلية المحضة والاستلزام الوجودي بدون شعور ولا إرادة، وليس من مصالح الكون ما يلزمه مراعاته لزوم تكليف، بحيث لو لم يراعه لتوجه عليه النقد، فيأتيه تنزهاً عن اللائمة، تعالى عن ذلك علواً كبيراً، ولكن نظام الكون ومصالحه العظمى إنما تقررت له بحكم أنه أثر الوجود الواجب الذي هو أكمل الوجودات وأرفعها، فالكمال في الكون إنما هو تابع لكمال المكوِّن، واتقان الإبداع إنما هو مظهر لسمو مرتبة المبدع، وبهذا الوجود البالغ أعلى غايات النظم تعلق العلم الشامل والإرادة المطلقة، فصدر ويصدر على هذا النمط الرفيع **﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾**[٢]، وهذا هو معنى قولهم: إن أفعاله لا تُعَلَّل بالأغراض، ولكنها تنزه عن العبث، ويستحيل أن تخلو من الحِكَم، وإن خفي شيء من حكمتها عن أنظارنا.

الوحدة

ومما يجب له: صفة الوحدة، ذاتاً ووصفاً ووجوداً وفعلاً. أما الوحدة الذاتية فقد أثبتناها فيما تقدم بنفي التركيب في ذاته، خارجاً وعقلاً، وأما الوحدة في الصفة، أي أنه لا يساويه في حياته الثابتة له موجود، فلما بينا من أن الصفة تابعة لمرتبة الوجود، وليس في الموجودات ما يساوي واجب الوجود في

---

(٢) سورة المؤمنون: الآية ١١٥.

مرتبة الوجود، فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات، وأما الوحدة في الوجود وفي الفعل، ونعني بها التفرد بوجوب الوجود، وما يتبعه من إيجاد الممكنات، فهي ثابتة، لأنه لو تعدد واجب الوجود لكان لكل من الواجبين تعين يخالف تعين الآخر بالضرورة، وإلا لم يتحصل معنى التعدد، وكلما اختلفت التعينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات المتعينة، لأن الصفة إنما تتعين وتنال تحققها الخاص بها بتعين ما ثبتت له بالبداهة، فيختلف العلم والإرادة باختلاف الذوات الواجبة، إذ يكون لكل واحدة منها علم وإرادة يباينان علم الأخرى وإرادتها، ويكون لكل واحدة علم وإرادة يلائمان ذاتها وتعينها الخاص بها.

هذا التخالف ذاتي، لأن علم الواجب وإرادته لازمان لذاته من ذاته لا لأمر في الخارج، فلا سبيل إلى التغير والتبدل فيهما كما سبق. وقد قدمنا أن فعل الواجب إنما يصدر عنه على حسب علمه وحكم إرادته، فيكون فعل كل صادراً على حكم يخالف الآخر مخالفة ذاتية، فلو تعدد الواجبون لتخالفت أفعالهم بتخالف علومهم وإرادتهم، وهو خلاف يستحيل معه الوفاق، وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات له السلطة على الإيجاد في عامة الممكنات، فكل له التصرف في كل منها على حسب علمه وإرادته، ولا مرجح لنفاذ أحد القدرتين دون الأخرى، فتتضارب أفعالهم حسب التضارب في علومهم وإرادتهم، فيفسد نظام الكون، بل يستحيل أن يكون له نظام، بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات، لأن كل ممكن لا بد أن يتعلق به الإيجاد على حسب العلوم والإرادات المختلفة، فيلزم

أن يكون للشيء الواحد وجودات متعددة، وهو محال، فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، ولكن الفساد ممتنع بالبداهة، فهو، جل شأنه، واحد في ذاته وصفاته، لا شريك له في وجوده ولا في أفعاله.

* * *

الصفات السمعية التي يجب الاعتقاد بها

ما قدمنا من الصفات التي يجب الاعتقاد بثبوتها لواجب الوجود هي ما أرشد إليه البرهان، وجاءت به الشريعة الإسلامية، وما تقدمها من الشرائع المقدسة، لتأييده والدعوة إليه بلسان نبينا محمد ﷺ، ولسان من سبقه من الأنبياء، صلوات الله عليهم أجمعين.

ومن الصفات ما جاء ذكره على لسان الشرع، ولا يحيله العقل إذا حمل على ما يليق بواجب الوجود، ولكن لا يهتدي إليه النظر وحده، ويجب الاعتقاد بأنه جل شأنه متصف بها اتباعاً لما قرره الشرع، وتصديقاً لما أخبر به.

الكلام

فمن تلك الصفات: صفة الكلام، فقد ورد أن الله كلم بعض أنبيائه، ونطق القرآن بأنه كلام الله. فمصدر الكلام المسموع عنه سبحانه لا بد أن يكون شأناً من شؤونه، قديماً بقدمه، أما الكلام المسموع نفسه، المعبر عن ذلك الوصف القديم فلا خلاف في حدوثه، ولا في أنه خلق من خلقه،

وخصص بالإسناد إليه لاختياره له سبحانه في الدلالة على ما أراد بلاغه لخلقه، ولأنه صادر عن محض قدرته، ظاهراً وباطناً، بحيث لا مدخل لوجود آخر فيه بوجه من الوجوه سوى أن من جاء على لسانه مظهر لصدوره، والقول بخلاف ذلك مصادرة للبداهة وتجرؤ على مقام القدم بنسبة التغير والتبدل إليه، فإن الآيات التي يقرؤها القارىء تحدث وتفنى بالبداهة كلما تليت.

والقائل بقدم القرآن المقروء أشنع حالاً وأضل اعتقاداً من كل ملة جاء القرآن نفسه بتضليلها والدعوة إلى مخالفتها، وليس في القول بأن الله أوجد القرآن، بدون دخل لكسب بشر في وجوده، ما يمس شرف نسبته، بل ذلك غاية ما دعا الدين إلى اعتقاده، فهو السنة، وهو ما كان عليه النبي وأصحابه، وكل ما خالفه فهو بدعة وضلالة.

أما ما نقل إلينا من ذلك الخلاف الذي فرق الأمة وأحدث فيها الأحداث، خصوصاً في أوائل القرن الثالث من الهجرة، وإباء بعض الأئمة أن ينطق بأن القرآن مخلوق، فقد كان منشؤه مجرد التحرج. والمبالغة في التأدب من بعضهم، وإلا فيجل مقام مثل الإمام ابن حنبل عن أن يعتقد أن القرآن المقروء قديم وهو يتلوه كل ليلة بلسانه ويكيفه بصوته(٣).

---

(٣) أي إن الحروف المكتوبة، والأصوات المسموعة والمقروءة من فعل الإنسان الكاتب والقارىء، أما المصدر الذي تعبر عنه هذه الحروف والأصوات، والذي يعبر هو في ذات الوقت عن مراد الله فهو قديم. . وكثيرون من الأشعرية يرون هذا الرأي، انظر في ذلك فتوى للعز بن عبد السلام في (طبقات الشافعية الكبرى) للسبكي جـ ٥ ص ٨٦، ٩٤، ٨٩ طبعة القاهرة الأولى.

البصر والسمع

ومما ثبت له بالنقل: صفة البصر، وهي ما به تنكشف المبصَرات.

وصفة السمع، وهي ما به تنكشف المسموعات. فهو السميع البصير، لكن علينا أن نعتقد أن هذا الانكشاف ليس بآلة ولا جارحة ولا حدقة ولا باصرة.

* * *

كلام في الصفات إجمالاً

أبتدىء الكلام فيما أقصد بذكر حديث إن لم يصح فكتاب الله بجملته وتفصيله يؤيد معناه، وهو قوله ﷺ: «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا».

إذا قدرنا عقل البشر قدره، وجدنا غاية ما ينتهي إليه كماله إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التي تقع تحت الإدراك الإنساني حساً كان أو وجداناً أو تعقلاً، ثم التوصل بذلك إلى معرفة مناشئها، وتحصيل كليات لأنواعها، والإحاطة ببعض القواعد لعروض ما يعرض لها، أما الوصول إلى كنه حقيقتها فمما لا تبلغه قوته، لأن اكتناه المركبات إنما هو باكتناه ما تركبت منه، وذلك ينتهي إلى البسيط الصرف، وهو لا سبيل إلى اكتناهه بالضرورة، وغاية ما يمكن عرفانه منه هو عوارضه وآثاره، خذ أظهر الأشياء وأجلاها، كالضوء: قرر الناظرون فيه له أحكاماً كثيرة فصلوها في علم خاص به، ولكن لم يستطع ناظر أن يفهم ما هو ولا أن يكتنه معنى الإضاءة نفسه، وإنما

يعرف من ذلك ما يعرفه كل بصير له عينان، وعلى هذا القياس.

ثم إن الله لم يجعل للإنسان حاجة تدعو إلى اكتناه شيء من الكائنات، وإنما حاجته إلى معرفة العوارض والخواص، ولذة عقله، إن كان سليماً إنما هي تحقيق نسبة تلك الخواص إلى ما اختصت به، وإدراك القواعد التي قامت عليها تلك النسب، فالاشتغال بالاكتناه إضاعة للوقت، وصرف للقوة إلى غير ما سيقت إليه.

اشتغل الإنسان بتحصيل العلم بأقرب الأشياء إليه، وهي نفسه، أراد أن يعرف بعض عوارضها وهل هي عرض أو جوهر؟ هل هي قبل الجسم؟ أو بعده؟ هل هي فيه؟ أو مجردة عنه؟.. كل هذه الصفات لم يصل العقل إلى إثبات شيء منها يمكن الاتفاق عليه، وإنما مبلغ جهد أنه عرف أنه موجود حي له شعور وإرادة، وكل ما أحاط به بعد ذلك من الحقائق الثابتة فهو راجع إلى تلك العوارض التي وصل إليها ببديهته، أما كنه شيء من ذلك، وكيفية اتصافه ببعض صفاته فهو مجهول عنده، ولا يجد سبيلاً للعلم به.

هذا حال العقل الإنساني مع ما يساويه في الوجود أو ينحط عنه، بل وكذلك شأنه فيما يظن من الأفعال أنه صادر عنه كالفكر وارتباطه بالحركة والنطق، فما يكون من أمره بالنسبة إلى ذلك الوجود الأعلى؟ ماذا يكون اندهاشه، بل انقطاعه[٤] إذا وجه نظره إلى ما لا يتناهى من الوجود الأزلي الأبدي؟؟.

---

(٤) الانقطاع هنا بمعنى العجز.

النظر في الخلق يهدي بالضرورة إلى المنافع الدنيوية، ويضيء للنفس طريقها إلى معرفة من هذه آثاره وعليها تجلت أنواره، وإلى اتصافه بما لولاه لما صدرت عنه هذه الآثار على ما هي عليه من النظام.

وتخالف الأنظار في الكون إنما هو من تصارع الحق والباطل، ولا بد أن يظفر الحق ويعلو الباطل بتعاون الأفكار، أو صولة القوى منها على الضعيف.

أما الفكر في ذات الخالق فهو طلب للاكتناه من جهة، وهو ممتنع على العقل البشري، لما علمت من انقطاع النسبة بين الوجودين ولاستحالة التركيب في ذاته، وتطاول إلى ما لا تبلغه القوة البشرية، من جهة أخرى، فهو عبث ومهلكة؟ لأنه سعي إلى ما لا يدرك، ومهلكة لأنه يؤدي إلى الخبط في الاعتقاد، لأنه تحديد لما لا يجوز تحديده، وحصر لما لا يصح حصره.

لا ريب أن هذا الحديث، وما أتينا عليه من البيان، . كما يأتي في الذات من حيث هي يأتي فيها مع صفاتها، فالنهي واستحالة الوصول إلى الاكتناه شاملان لها، فيكفينا من العلم بها أن نعلم أنه متصف بها، ولهذا لم يأت الكتاب العزيز، وما سبقه من الكتب، إلا بتوجيه النظر إلى المصنوع لينفذ منه إلى معرفة وجود الصانع وصفاته الكمالية، أما كيفية الاتصاف بها فليس من شأننا أن نبحث فيه.

فالذي يوجبه علينا الإيمان هو أن نعلم أنه موجود، لا يشبه الكائنات، أزلي، أبدي، حي، عالم، مريد، قادر، منفرد في وجوده، وفي صفاته، وفي صنع خلقه، وأنه متكلم، سميع

بصير، وما يتبع ذلك من الصفات التي جاء الشرع بإطلاق أسمائها عليه. أما كون الصفات زائدة على الذات، وكون الكلام صفة غير ما اشتمل عليه العلم من معاني الكتب السماوية، وكون السمع والبصر غير العلم بالمسموعات والمبصرات، ونحو ذلك من الشؤون التي اختلف عليها النظار وتفرقت فيها المذاهب فمما لا يجوز الخوض فيه، إذ لا يمكن لعقول البشر أن تصل إليه، والاستدلال على شيء منه بالألفاظ الواردة ضعف في العقل وتغرير بالشرع، لأن استعمال اللغة لا ينحصر في الحقيقة، ولئن انحصر فيها فوضع اللغة لا تراعى فيه الوجودات بكنهها الحقيقي، وإنما تلك مذاهب فلسفة، إن لم يضل فيها أمثلهم فلم يهتد فيها فريق إلى مَقْنَع[٥]. فما علينا إلا الوقوف عندما تبلغه عقولنا، وأن نسأل الله أن يغفر لمن آمن به وبما جاء به رسله ممن تقدمنا.

---

(٥) المقنع ـ بفتح الميم وسكون القاف وفتح النون ـ: الشاهد الرضا الذي تقنع شهادته.

أفعال الله جلّ شأنه

أفعال الله صادرة عن علمه وإرادته، كما سبق تقديره، وكل ما صدر عن علم وإرادة فهو عن الاختيار، ولا شيء مما يصدر عن الاختيار بواجب على المختار لذاته، فلا شيء من أفعاله بواجب الصدور عنه لذاته فجميع صفات الأفعال من: خلق، ورزق، وإعطاء، ومنع، وتعذيب، وتنعيم، مما يثبت له تعالى بالإمكان الخاص، فلا يطوفن بعقل عاقل ـ بعد تسليم أنه فاعل عن علم وإرادة ـ أن يتوهم أن شيئاً من أفعاله واجب عنه لذاته، كما هو الشأن في لوازم الماهيات، أو في اتصاف الواجب بصفاته مثلاً، فإن ذلك هو التناقض البديهي الاستحالة، كما سبقت الإشارة إليه.

بقيت علينا جولة نظر في تلك المقالات الحمقى التي اختبط فيها القوم اختباط إخوة تفرقت بهم الطرق في السير إلى مقصد واحد، حتى إذا التقوا في غسق الليل صاح كل فريق بالآخر صيحة المستنجد، فظن كل أن الآخر عدو يريد مقارعته على ما بيده، فاستمر بينهم القتال، وما زالوا يتجالدون حتى تساقط جلهم دون المطلب، ولما أسفر الصبح وتعارفت الوجوه رجع الرشد إلى من بقي، وهم الناجون، ولو تعارفوا من قبل لتعاونوا جميعاً على بلوغ ما أملوا، ولوافتهم الغاية إخواناً بنور

الحق مهتدين، نريد تلك المقالات المضطربة في أنه يجب على الله رعاية المصلحة في أفعاله[1]، وتحقيق وعيده فيمن تعدى حدوده من عبيده[2]، وما يتلو ذلك من وقوع أعماله تحت العلل والأعراض، فقد بالغ قوم في الإيجاب حتى ظن الناظر في مزاعمهم أنهم عدوه واحداً من المكلفين، يفرض عليه أن يجهد للقيام بما عليه من الحقوق وتأدية ما لزمه من الواجبات، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وغلا آخرون في نفي التعليل عن أفعاله حتى خيل للممعن في مقالاتهم أنهم لا يرضونه إلا قُلَّباً يبرم اليوم ما نقضه بالأمس، ويفعل غداً ما أخبر بنقيضه اليوم، أو غافلاً لا يشعر بما يستتبعه عمله، ﴿**سبحان ربك رب العزة عما يصفون**﴾[3]، وهو أحكم الحاكمين وأصدق القائلين. جبروت الله وطهارة دينه أعلى وأرفع من هذا كله.

اتفق الجميع على أن أفعاله لا تخلو من حكمة، وصرح الغلاة والمقصرون جميعاً بأنه تعالى منزه عن العبث في أفعاله، والكذب في أقواله، ثم بعد هذا أخذوا يتنابذون بالألفاظ

---

(١) وهو ما يعرف عند المعتزلة من أن الله سبحانه يجب عليه فعل الصلاح والأصلح لعباده.

(٢) وهو أحد الأصول الخمسة عند المعتزلة، سموه صدق الوعد والوعيد، وأحالوا عليه أن يتخلف وعده للطائعين ووعيده للعاصين، انظر الفصل الذي كتبناه عن هذه الأصول الخمسة في بحثنا (المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية) طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨ م.

(٣) سورة الصافات: الآية ١٨٠.

ويتمارون في الأوضاع، ولا يدرى إلى أي غاية يقصدون، فلنأخذ ما اتفقوا عليه، ولنرد إلى حقيقة واحدة ما اختلفوا فيه.

حكمة كل عمل ما يترتب عليه مما يحفظ نظاماً أو يدفع فساداً، خاصاً كان أو عاماً، لو كشف للعقل من أي وجه لعقله، وحكم بأن العمل لم يكن عبثاً ولعباً، ومن يزعم للحكمة معنى لا يرجع إلى هذا حاكمناه إلى أوضاع اللغة، وبداهة العقل، لا يسمى ما يترتب على العمل حكمة، ولا يتمثل عند العقل بمثالها إلا إذا كان ما يتبع العمل مراداً لفاعله بالفعل، وإلا لعد النائم حكيماً فيما لو صدرت عنه حركة في نومه قتلت عقرباً كاد يلسع طفلاً، أو دفعت صبياً عن حفرة كاد يسقط فيها، بل لوسم بالحكمة كثير من العجماوات إذا استتبعت حركاتها بعض المنافع الخاصة أو العامة، والبداهة تأباه.

من القواعد الصحيحة المسلمة عند جميع العقلاء أن أفعال العاقل تصان عن العبث، ولا يريدون من العاقل إلا العالم بما يصدر عنه بإرادته، ويريدون من صونها عن العبث أنها لا تصدر إلا لأمر يترتب عليها، يكون غاية لها، وإن كان هذا في العاقل الحادث فما ظنك بمصدر كل عقل ومنتهى الكمال في العلم والحكم؟ كلها مسلمات لا ينازع فيها أحد.

صنع الله الذي أتقن كل شيء، وأحسن خلقه، مشحون بضروب الحكم، ففيه ما قامت به السماوات والأرض وما بينهما، وحفظ به نظام الكون بأسره، وما صانه عن الفساد الذي يفضي به إلى العدم، وفيه ما استقامت به مصلحة كل موجود على حدته، خصوصاً ما هو من الموجودات الحية كالنبات

والحيوان، ولولا هذه البدائع من الحكم ما تيسر لنا الاستدلال على علمه.

فهذه الحكم التي نعرفها الآن بوضع كل شيء في موضعه، وإيتاء كل محتاج ما له إليه الحاجة، إما أن تكون معلومة له مرادة مع الفعل أم لا.. لا يمكن القول بالثاني، وإلا لكان قولاً بقصور العلم إن لم تكن معلومة، أو بالغفلة إن لم تكن مرادة، وقد سبق تحقيق أن علمه وسع كل شيء، واستحالة غيبة أثر من آثار إرادته، فهو يريد الفعل، ويريد ما يترتب عليه من الحكمة، ولا معنى لهذا إلا إرادته للحكمة من حيث هي تابعة للفعل.

ومن المحال أن تكون الحكمة غير مرادة بالفعل، مع العلم بارتباطها به، فيجب الاعتقاد بأن أفعاله يستحيل أن تكون خالية من الحكمة، وبأن الحكمة يستحيل أن تكون غير مرادة، إذ لو صح توهم أن ما يترتب على الفعل غير مراد لم يعد ذلك من الحكمة، كما سبق.

فوجوب الحكمة في أفعاله تابع لوجوب الكمال في علمه وإرادته، وهو مما لا نزاع فيه بين جميع المتخالفين، وهكذا يقال في وجوب تحقيق ما وعد وأوعد له، فإنه تابع لكمال علمه وإرادته وصدقه، وهو أصدق القائلين، وما جاء في الكتاب أو السنة مما قد يوهم خلاف ذلك يجب إرجاعه إلى بقية الآيات وسائر الآثار، حتى ينطبق الجميع على ما هدت إليه البديهيات السابق إيرادها، وعلى ما يليق بكمال الله، وبالغ حكمته، وجليل عظمته، والأصل الذي يرجع إليه كل وارد في هذا الباب قوله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ، لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ، بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[٤].

وقوله: ﴿لاتخذناه من لدنا﴾ أي لصدر عن ذاتنا المتفردة بالكمال المطلق، الذي لا يشوبه نقص، وهو محال، وإن في قوله: ﴿إن كنا فاعلين﴾، نافية، وهو نتيجة القياس السابق.

بقي أن الناظرين في هذه الحقائق ينقسمون إلى قسمين: فمنهم من يطلب علمها لأنه شهوة العقل وفيه لذته، فهذا القسم يسمي المعاني بأسمائها ولا يبالي جوز الشرع إطلاقها في جانب الله أم لم يجوز، فيسمي الحكمة غاية وغرضاً، وعلة غائية ورعاية للمصلحة، وليس من رأيه أن يجعل لقلمه عناناً يرده عن إطلاقه اسماً متى صح عنده معناه، وقد يعبر بالواجب عليه بدل الواجب له، غير مبال لما يوهمه اللفظ.

ومنهم من يطلب علمها مع مراعاة أن ذلك دين يتعبد به، واعتقاد يشؤون لإله عظيم يعبد بالتحميد والتعظيم، ويجب الاحتياط في تنزيهه حتى بعفة اللسان عن النطق بما يوهم نقصاً في جانبه، فيتبرأ من تلك الألفاظ، مفردها ومركبها، فإن الوجوب عليه يوهم التكليف والإلزام، وبعبارة أخرى يوهم القهر والتأثر بالأغيار، ورعاية المصلحة توهم إعمال النظر وإجالة الفكر، وهما من لوازم النقص في العلم والغاية، والعلة الغائية والغرض توهم حركة في نفس الفاعل من قبل البدء في العمل

---

(٤) سورة الأنبياء: الآية ١٦ ـ ١٨.

إلى نهايته، وفيها ما في سوابقها، ولكن الله أكبر. . هل يصح أن تكون سعة المجال أو التعفف في المقال سبباً في التفرقة بين المؤمنين، وتماريهم في الجدال حتى ينتهي بهم التفرق إلى ما صاروا إليه من سوء الحال؟!.

أفعال العباد

كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود، ولا يحتاج في ذلك إلى دليل يهديه ولا معلم يرشده، كذلك يشهد أنه مدرك لأعماله الاختيارية، يزن نتائجها بعقله، ويقدرها بإرادته، ثم يصدرها بقدرة ما فيه، ويعد إنكار شيء من ذلك مساوياً لإنكار وجوده، في مجافاته لبداهة العقل.

كما يشهد بذلك في نفسه يشهده أيضاً في بني نوعه كافة، متى كانوا مثله في سلامة العقل والحواس، ومع ذلك فقد يريد إرضاء خليل فيغضبه، وقد يطلب كسب رزق فيفوته، وربما سعى إلى منجاة فسقط في مهلكة، فيعود باللائمة على نفسه إن كان لم يُحكم النظر في تقدير فعله، ويتخذ من خيبته أول مرة مرشداً له في الأخرى، فيعاود العمل من طريق أقوم وبوسائل أحكم، ويتقد غيظه على من حال بينه وبين ما يشتهي، إن كان سبب الإخفاق في المسعى منازعة منافس له في مطلبه، لوجدانه من نفسه أنه الفاعل في حرمانه، فينبري لمناضلته، وتارة يتجه إلى أمر أسمى من ذلك، إن لم يكن لتقصيره أو لمنافسة غيره دخل فيما لقي من مصير عمله، كأن هب ريح فأغرق بضاعته، أو نزل صاعق فأحرق ماشيته، أو علق أمله بمعين فمات، أو بذي منصب فعزل، يتجه من ذلك إلى أن في الكون قوة أسمى

من أن تحيط بها قدرته، وأن وراء تدبيره سلطاناً لا تصل إليه سلطته، فإن كان قد هداه البرهان وتقويم الدليل إلى أن حوادث الكون بأسره مستندة إلى واجب وجود واحد، يصرّفه على مقتضى علمه وإرادته، خشع وخضع، ورد الأمر إليه فيما لقي، ولكن مع ذلك لا ينسى نصيبه فيما بقي، فالمؤمن كما يشهد بالدليل وبالعيان إن قدرة مكون الكائنات أسمى من قوى الممكنات، يشهد بالبداهة أنه في أعماله الاختيارية، عقلية كانت أو جسمانية، قائم بتصريف ما وهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لأجله، وقد عرّف القوم شكر الله على نعمه فقالوا: هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خُلق لأجله.

على هذا قامت الشرائع، وبه استقامت التكاليف، ومن أنكر شيئاً منه فقد أنكر مكان الإيمان من نفسه، وهو عقله الذي شرفه الله بالخطاب في أوامره ونواهيه.

أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من إحاطة علم الله وإرادته وقدرته، وبين ما تشهد به البداهة من علم المختار فيما وقع عليه الاختيار، فهو من طلب سر القدر الذي نهينا عن الخوض فيه، واشتغال بما لا تكاد تصل العقول إليه، وقد خاض فيه الغالون من كل ملة خصوصاً من المسيحيين والمسلمين، ثم لم يزالوا بعد طول الجدال وقوفاً حيث ابتدءوا، وغاية ما فعلوا أن فرقوا وشتتوا، فمنهم القائل بسلطة العبد على جميع أفعاله واستقلالها المطلق[1]، وهو غرور

(١) هم المعتزلة ومن رأى رأيهم.

ظاهر، ومنهم من قال بالجبر وصرح به[٢]، ومنهم من قال به وتبرأ من اسمه[٣]، وهو هدم للشريعة ومحو للتكاليف وإبطال لحكم العقل البديهي، وهو عماد الإيمان.

ودعوى أن الاعتقاد بكسب العبد لأفعاله يؤدي إلى الإشراك بالله، وهو الظلم العظيم، دعوى من لم يلتفت إلى معنى الإشراك على ما جاء به الكتاب والسنة، فالإشراك: اعتقاد أن لغير الله أثراً فوق ما وهبه الله من الأسباب الظاهرة، وأن لشيء من الأشياء سلطاناً على ما خرج عن قدرة المخلوقين. وهو اعتقاد من يعظم سوى الله مستعيناً به فيما لا يقدر العبد عليه، كالاستنصار في الحرب بغير قوة الجيوش. والاستشفاء من الأمراض بغير الأدوية التي هدانا الله إليها، والاستعانة على السعادة الأخروية أو الدنيوية بغير الطرق والسنن التي شرعها الله لنا. هذا هو الشرك الذي كان عليه الوثنيون ومن ماثلهم، فجاءت الشريعة الإسلامية بمحوه، ورد الأمر فيما فوق القدرة البشرية والأسباب الكونية إلى الله وحده، وتقرير أمرين عظيمين هما ركنا السعادة وقوام الأعمال البشرية:

الأول: أن العبد يكسب بإرادته وقدرته ما هو وسيلة لسعادته.

---

(٢) وهم الجبرية الخلص، وأول فرقهم «الجهمية» أتباع الجهم بن صفوان، المتوفى سنة ١٢٨ هـ، وسارت على دربهم هذا فرق كثيرة، انظر الفصل الذي كتبناه عن الجبرية في بحثنا (المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية).

(٣) هم الأشعرية الذين لا يغني عنهم قولهم بالكسب شيئاً من الاتفاق في نهاية المطاف مع الجبرية. انظر في ذلك بحثنا السابق أيضاً.

والثاني: أن قدرة الله هي مرجع لجميع الكائنات، وأن من آثارها ما يحول بين العبد وبين انفاذ ما يريده، وأن لا شيء سوى الله يمكن له أن يمد العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه.

جاءت الشريعة لتقرير ذلك، وتحريم أن يستعين العبد بأحد غير خالقه في توفيقه إلى اتمام عمله، بعد إحكام البصيرة فيه، وتكليفه بأن يرفع همته إلى استمداد العون منه وحده، بعد أن يكون قد أفرغ ما عنده من الجهد في تصحيح الفكر وإجادة العمل، ولا يسمح العقل ولا الدين لأحد أن يذهب إلى غير ذلك.

وهذا الذي قررناه قد اهتدى إليه سلف الأمة فقاموا من الأعمال بما عجبت له الأمم، وعول عليه من متأخري أهل النظر إمام الحرمين الجويني، رحمه الله، وإن أنكر عليه بعض من لم يفهمه.

أكرر القول بأن الإيمان بوحدانية الله لا يقتضي من المكلف إلا اعتقاد أن الله صرفه في قواه، فهو كاسب لإيمانه ولما كلفه الله به من بقية الأعمال، واعتقاد أن قدرة الله فوق قدرته، ولها وحدها السلطان الأعلى في إتمام مراد العبد بإزالة الموانع أو تهيئة الأسباب المتممة مما لا يعلمه ولا يدخل تحت إرادته.

أما التطلع إلى ما هو أغمض من ذلك فليس من مقتضى الإيمان، كما بينا، وإنما هو من شره العقول في طلب رفع الأستار عن الأسرار، ولا أنكر أن قوماً قد وصلوا بقوة العلم، والمثابرة على مجاهدة المدارك إلى ما اطمأنت به نفوسهم وتقشعت به حيرتهم، ولكن قليل ما هم. على أن ذلك نور يقذفه

الله في قلب من شاء، ويخص به أهل الولاية والصفاء، وكثيراً ما ضل قوم وأضلوا، وكان لمقالاتهم أسوأ الأثر فيما عليه حال الأمة اليوم، لو شئت لقرّبت البعيد فقلت: إن من بالغ الحِكَم في الكون أن تتنوع الأنواع على ما هي عليه في العيان، ولا يكون النوع ممتازاً عن غيره حتى تلزمه خواص، وكذا الحال في تميز الأشخاص، فواهب الوجود يهب الأنواع والأشخاص وجودها على ما هي عليه، ثم كل وجود متى حصل كانت له توابعه.

اختيار الإنسان

ومن تلك الأنواع الإنسان، ومن مميزاته حتى يكون غير سائر الحيوانات، أن يكون مفكراً مختاراً في عمله على مقتضى فكره، فوجوده الموهوب مستتبع لمميزاته هذه، ولو سلب شيئاً منها لكان إما ملكاً أو حيواناً آخر، والفرض أنه الإنسان، فهبة الوجود له لا شيء فيها من القهر على العمل.

ثم علم الواجب محيط بما يقع من الإنسان بإرادته، وبأن عمل كذا يصدر في وقت كذا، وهو خير يثاب عليه، وأن عملاً آخر يعاقب عليه. عقاب الشر والأعمال في جميع الأحوال حاصلة عن الكسب والاختيار، فلا شيء في العلم بسالب للتخيير في الكسب، وكون ما في العلم يقع لا محالة إنما جاء من حيث هو الواقع، والواقع لا يتبدل، ولنا في علومنا الكونية أقرب الأمثال: شخص من أهل العناد يعلم علم اليقين أن عصيانه لأميره باختياره يحل به عقوبته لا محالة، لكنه مع ذلك

يعمل العمل ويستقبل العقوبة، وليس لشيء من علمه وانطباقه على الواقع أدنى أثر في اختياره، لا بالمنع ولا بالإلزام، فانكشاف الواقع للعالم لا يصح في نظر العقل ملزماً ولا مانعاً، وإنما يربك الوهم تغيير العبارات وتشعب الألفاظ، ولو شئت لزدت في بيان ذلك ورجوت ألا يبعد عن عقل ألف النظر الصحيح، ولم تفسد فطرته بالمماحكات اللفظية، لكن يمنعني عن الإطالة فيه عدم الحاجة إليه في صحة الإيمان وتقاصر عقول العامة عن إدراك الأمر في ذاته مهما بالغ المعير في الإيضاح عنه، والتياث قلوب الجمهور من الخاصة بمرض التقليد، فهم يعتقدون الأمر ثم يطلبون الدليل عليه، ولا يريدونه إلا موافقاً لما يعتقدون، فإن جاءهم بما يخالف ما اعتقدوا نبذوه ولجوا في مقاومته وإن أدى ذلك إلى جحد العقل برمته، فأكثرهم يعتقد فيستدل، وقلما تجد بينهم من يستدل ليعتقد، فإن صاح بهم صائح من أعماق سرائرهم: ويل للخابط، ذلك قلب لسنة الله في خلقه، وتحريف لهديه في شرعه، عرتهم هزة من الجزع، ثم عادوا إلى السكون محتجين بأن هذا هو المألوف، وما أقمنا إلا على معروف، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!.

حُسن الأفعال وقبحها

الأفعال الإنسانية الاختيارية لا تخرج عن أن تكون من الأكوان الواقعة تحت مداركنا، وما تنفعل به نفوسنا عند الإحساس بها أو استحضار صورها يشابه كل المشابهة ما تنفعل به عند وقوع بعض الكائنات تحت حواسنا أو حضورها في مخيلاتنا، وذلك بديهي لا يحتاج إلى دليل.

نجد في أنفسنا بالضرورة تمييزاً بين الجميل من الأشياء والقبيح منها، فإن اختلفت مشارب الرجال في جمال النساء، أو مشارب النساء في معنى جمال الرجال، فلم يختلف أحد في جمال ألوان الأزهار، وتنضيد أوراق النباتات والأشجار، خصوصاً إذا كانت أوضاع الزهر على أشكال تمثل الائتلاف والتناسب بين تلك الألوان بعضها مع بعض، ولا في قبح الصورة الممثل بها بتهشيم بعض أجزائها، وانقطاع البعض الآخر على غير نظام، وانفعال أنفسنا من الجميل بهجة أو إعجاباً، ومن القبيح اشمئزازاً أو جزعاً، وكما يقع هذا التمييز في المبصرات يقع في غيرها من المسموعات والملموسات والمذوقات والمشمومات، كما هو معروف لكل حساس من بني آدم بإحدى تلك الحواس.

ليس هذا موضع تحديد ما هو الجمال وما هو القبح في الأشياء، ولكن لا يخالفنا أحد في أن من خواص الإنسان، بل وبعض الحيوان، التمييز بينهما، وعلى هذا التمييز قامت الصناعات على اختلاف أنواعها، وبه ارتقى العمران في أطواره إلى الحد الذي تراه عليه الآن، وإن اختلفت الأذواق ففي الأشياء جمال وقبح.

* * *

هذا في المحسوسات واضح كما سبق، ولعله لا ينزل عن تلك الدرجة في الوضوح ما يلم به العقل من الموجودات المعقولة، وإن اختلف اعتبار الجمال فيها، فالكمال في المعقولات كالوجود والواجب، والأرواح اللطيفة، وصفات

النفوس البشرية له جمال تشعر به أنفس عارفيه، وتنبهر له بصائر لاحظيه، وللنقص قبح لا تنكره المدارك العالية، وإن اختلف أثر الشعور ببعض أطواره في الوجدان من أثر الإحساس بالقبيح في المحسوسات، وهل في الناس من ينكر قبح النقص في العقل، والسقوط في الهمة، وضعف العزيمة؟؟ ويكفي أن أرباب هذه النقائص المعنوية يجاهدون في إخفائها ويفخرون أحياناً بأنهم متصفون بأضدادها.

وقد يجمل القبيح بجمال أثره، ويقبح الجميل بقبح ما يقترن به، فالمر قبيح مستبشع، والملك الدميم المشوه الخلقة ينبو عنه النظر، لكن أثر المر في معالجة المرض، وعدل الدميم في رعيته، أو إحسانه إليك في خاصة نفسك، يغير من حالتك النفسية عند حضور صورته، فإن جمال الأثر يلقي على صاحبه أشعة من بهائه، فلا يشعر الوجدان منه إلا بالجميل، ومثل ذلك يقال في قبح الحلو إذا أمز، واشمئزاز النفس من الجميل إذا ظلم وأضر.

هل يمكن لعاقل أن لا يقول في الأفعال الاختيارية كما قال في الموجودات الكونية، مع أنها نوع منها، وتقع تحت حواسنا ومداركنا العقلية، إما بنفسها وإما بأثرها، وتنفعل نفوسنا بما يلم بها منها كما يرد عليها من صور الكائنات؟؟ . . كلا . . بل هي قسم من الموجودات، حكمها في ذلك حكم سائرها بالبداهة.

* * *

فمن الأفعال الاختيارية ما هو مُعْجب في نفسه، تجد النفس منه ما تجد من جمال الخَلق، كالحركات العسكرية المنتظمة،

وتقلب المهرة من اللاعبين في الألاعيب المعروفة اليوم (بالجمناستيك)، وكإيقاعات النغمات على القوانين الموسيقية من العارف بها، ومنها ما هو قبيح في نفسه، يحس منه ما يحس من رؤية الخلق المشوه، كتخبط ضعفاء النفوس عند الجزع، وكولولة النائحات ونقع(٥) المذعورين.

ومنها ما هو قبيح لما يعقبه من الألم، وما هو حسن لما يجلب من اللذة أو دفع الألم، فالأول كالضرب والجرح وكل ما يؤلم من أفعال الإنسان، والثاني كالأكل على جوع والشرب على عطش، وكل ما يحصل لذة أو يدفع ألماً مما لا يحصى عده، وفي هذا القسم يكون الحَسَن بمعنى ما يلذ والقبيح بمعنى المؤلم.

وقلما يختلف تمييز الإنسان للحَسَن والقبيح من الأفعال بالمعنيين السابقين عن تمييز الحيوانات المرتقية في سلسلة الوجود، اللهم إلا في قوة الوجدان وتحديد مرتبة الجمال والقبح.

ومن الأفعال الاختيارية ما يحسن باعتبار ما يجلب من النفع، وما يقبح بما يجر إليه من الضرر، ويختص الإنسان بالتمييز بين الحسن والقبيح بهذا المعنى إذا أخذ من أكمل وجهاته، وقلما يشاركه فيه حيوان آخر، اللهم إلا من أحط جهاته، وهو خاصة العقل وسر الحكمة الإلهية في هبة الفكر.

---

(٥) من معانيه ارتفاع الصوت والغبار، وشق الجيوب.

فمن اللذيذ ما يقبح لشؤم عاقبته، كالإفراط في تناول الطعام والشراب، والانقطاع إلى سماع الأغاني، والجري في أعقاب الشهوات، فإن ذلك مفسدة للصحة، مضيعة للعقل، متلفة للمال، مدعاة للعجز والذل، وإنما قبح اللذيذ في هذا الموضع لقصر مدته، وطول مدة ما يجر إليه عادة من الآلام التي قد لا تنتهي إلا بالموت على أسوأ حالاته، ولضعف النسبة بين متاع اللذة ومقاساة شدائد الألم.

ومن المؤلم ما يحسن كتجشم مشاق التعب في الأعمال لكسب الرزق، وتأمين النفس على حاجاتها في أوقات الضعف، ومجاهدة الشهوات، ومقاساة الحرمان من بعض اللذات حيناً من الزمن ليتوفر للقوى البدنية والعقلية حظها من التمتع بما قدر لها من اللذائذ على وجه ثابت لا يخالطه اضطراب، أو على نمط يخفف من رزايا الحياة، إن عدت الحياة مثاراً لها.

ومن المؤلم الذي عده العقل البشري حسناً مقارعة الإنسان عدوه، سواء كان من نوعه أو من غيره، للمدافعة عن نفسه أو عن أنصاره، ومنهم بنو أبيه أو قبيلته أو شعبه أو أمته، حسب ارتقائه في الإحساس، ومخاطرته حتى بحياته في سبيل ذلك، كأنه يرى في بذل هذه الحياة أمناً على حياة أخرى تشعر بها نفسه وإن لم يحددها عقله.

ومنه معاناة التعب في كشف ما عمي عن علمه من حقائق الكون، كأنه لا يرى المشقة في ذلك شيئاً بالقياس إلى ما يحصل من لذة الاطمئنان على الحق بقدر ما له من الاستطاعة.

وعد من اللذيذ المستقبح مد اليد إلى ما كسبه الغير بسعيه واستشفاء ألم الحقد بإتلاف نفس المحقود عليه أو ماله، لما في ذلك من جانب المخافة العامة حتى على ذات المعتدي، ويمكنك من نفسك استحضار ما يتبع الوفاء بالعهود والعقود والغدر فيها.

كل هذا عرفه العقل البشري، وفرق فيه بين الضار والنافع، وسمي الأول فعل الشر والثاني عمل الخير، وهذا التفريق هو منبت التمييز بين الفضيلة والرذيلة، وقد حددهما النظر الفكري على تفاوت في الإجمال والتفصيل للتفاوت في درجات عقول الناظرين، وناط بهما سعادة الإنسان وشقاءه في هذه الحياة، كما ربط بهما نظام العمران البشري وفساده وعزة الأمم وذلتها وضعفها وقوتها، وإن كان المحددون لذلك والآخذون فيه بحظ الصواب هم العدد القليل من عقلاء البشر.

* * *

كل هذا من الأوليات العقلية، لم يختلف فيه مِلّيّ ولا فيلسوف، فللأعمال الاختيارية، حسن وقبح في نفسها، أو باعتبار أثرها في الخاصة أو في العامة، والحس أو العقل قادر على تمييز ما حسن منها وما قبح بالمعاني السابقة، بدون توقف على سمع.

والشاهد على ذلك ما تراه في بعض أصناف الحيوان، وما نشهده من أفاعيل الصبيان قبل تعقل ما معنى الشرع، وما وصل إلينا من تاريخ الإنسان وما عرف عنه في جاهليته.

ومما يحسن ذكره هنا ما شاهده بعض الناظرين في أحوال النمل، قال: كانت جماعة من النمل تشتغل في بيت لها، فجاءت نملة كأنها القائمة بمراقبة العمل، فرأت المشتغلات قد وضعت السقف على أقل من الارتفاع المناسب، فأمرت بهدمه، فهدم، ورفع البنيان إلى الحد الموافق، ووضع السقف على أرفع مما كان، وذلك من أنقاض السقف القديم. وهذا هو التمييز بين الضار والنافع فمن زعم أن لا حسن ولا قبح في الأعمال على الإطلاق فقد سلب نفسه العقل، بل عدها أشد حمقاً من النمل.

* * *

سبق لنا أن واجب الوجود وصفاته الكمالية تعرف بالعقل، فإذا وصل مستدل ببرهانه إلى اثبات الواجب وصفاته الغير السمعية، ولم تبلغه بذلك رسالة، كما حصل لبعض أقوام من البشر، ثم انتقل من النظر في ذلك وفي أطوار نفسه إلى أن مبدأ العقل في الإنسان يبقى بعد موته، كما وقع لقوم آخرين، ثم انتقل من هذا مخطئاً أو مصيباً، إلى أن بقاء النفس البشرية بعد الموت يستدعي سعادة لها فيه أو شقاء، ثم قال: إن سعادتها إنما تكون بمعرفة الله وبالفضائل، وإنها إنما تسقط في الشقاء بالجهل بالله وبارتكاب الرذائل، وبنى على ذلك أن من الأعمال ما هو نافع للنفس بعد الموت بتحصيل السعادة، ومنها ما هو ضار لها بعده بإيقاعها في الشقاء، فأي مانع عقلي أو شرعي يحظر عليه أن يقول بعد ذلك بحكم عقله: إن معرفة الله واجبة، وإن جميع الفضائل وما يتبعها من الأعمال مفروضة، وإن الرذائل وما يكون

عنها محظورة؟؟ وأن يصنع لذلك ما يشاء من القوانين ليدعو بقية البشر إلى الاعتقاد بمثل ما يعتقد، وإلى أن يأخذ من الأعمال بمثل ما أخذ به حيث لم يوجد شرع يعارضه؟؟.

أما أن يكون ذلك حالاً لعامة الناس، يعلمون بعقولهم أن معرفة الله واجبة، وأن الفضائل مناط السعادة في الحياة الأخرى، والرذائل مدار الشقاء فيها، فمما لا يستطيع عاقل أن يقول به، والمشهود من حال الأمم كافة يضلل القائل به في رأيه.

لو كانت حاجات الإنسان ومخاوفه محدودة كما هي حاجات فيل أو أسد مثلاً، وكان ما وهب له من الفكر واقفاً عند حد ما إليه الحاجة، لاهتدى إلى المنع واتقاء المضار على وجه لا يختلف فيه أفراده، ولسعدت حياته وتخلص كل من شر الآخر، ونجا بقية الحيوانات من غائلة الجميع. لكن قضى عليه حكم نوعه بألا يكون لحاجته حد، ولا تختص معيشته بجو من الأجواء ولا بوضع من الأوضاع، وأن يوهب من القوى المدركة ما يكفيه استعماله في سد عوزه وتوفير لذاته، في أي إقليم، وعلى أي حال، وأن يختلف ظهور هذه المدارك في أطوارها وآثارها باختلاف أصنافه وشعوبه وأشخاصه اختلافاً لا تنتهي درجاته، ولولا هذا لما اختلف عن بقية الحيوانات إلا باستقامة القامة وعرض الأظفار.

* * *

وهب الله الإنسان أو سلط عليه ثلاث قوى لم يساوه فيها حيوان: الذاكرة، والمخيلة، والمفكرة.

فالمذكرة: تثير من صور الماضي ما ستره الاشتغال بالحاضر، فتستحضر من صور المرغوبات والمكروهات ما تنبه إليه الأشياء أو الأضداد الحاضرة، فقد يذكر الشيء بشبهه وقد يذكره بضده، كما هو بديهي.

والخيال: يجسم من المذكور، وما يحيط به من الأحوال، حتى يصير كأنه شاهد، ثم ينشيء له مثال لذة أو ألم في المستقبل يحاكي ما ذهب به الماضي، ويهمز للنفس في طلبه أو الهرب منه فتلجأ إلى **الفكر** : في تدبير الوسيلة إليه.

على هذه القوى الثلاث مستوى سعادة الإنسان، ومنها يتنوع بلائه. فمن الناس معتدل الذكر هادىء الخيال صحيح الفكر، ينظر مثلاً في حال مسرف أنفق ماله في غير نافع، وضاقت يده عما يقيم معيشته، فيذكر ألماً لحاجة مضت، ثم يتخيل المال ومنافعه وما تتمتع به النفس في اللذة به، سواء في دفع الألم الذي يحدثه مشهد الفاقة في غيره، بإعطاء المضطر ما يذهب بضرورته، ثم يتخيل ذلك المال آتياً من وجوهه التي لا يتعلق بها حق من حقوق غيره، وعند ذلك يوجه فكره لطلب الوسيلة إليه من تلك الوجوه بالعمل القويم في استخدام ما وهبه الله من القوى في نفسه وما سخره له من قوى الكون المحيط به.

ومن الناس منحرف عن سنن الاعتدال، يرى مالاً مثلاً في يد غيره، فيتذكر لذة ماضية أصابها بمثل هذا المال، ويعظم له الخيال لذة مثلها في المستقبل، ولا يزال يعظم في تلك اللذة والتمتع بها حتى يقع ظل الخيال على طريق الفكر فيستر عنه ما طاب من وجوه الكسب، وإنما يعمد إلى استعمال قوته أو حيلته

في سلب المال من يد مالكه، لينفقه فيما تخيل من المنفعة، فيكون قد عطل بذلك قواه الموهوبة له، وأخل بالأمن الذي أفاضه الله بين عباده، وسن سنة الاعتداء، فلا يسهل عليه ولا على غيره الوصول إلى الراحة من أعمال المقترفين لمثل عمله.

وخفيف من النظر في أعمال البشر يجليها جميعاً على نحو ما بينا في المثالين، فلقوة الذاكرة وضعفها، ولحدة الخيال واعتداله، واعوجاج الفكر واستقامته أعظم الأثر في التمييز بين النافع والضار في أشخاص الأعمال، وللأمزجة والأجواء وما يحتف بالشخص من أهل وعشيرة ومعاشرين مدخل عظيم في التخيل والفكر، بل وفي الذكر.

فالناس متفقون على أن من الأعمال ما هو نافع، ومنها ما هو ضار، وبعبارة أخرى: منها ما هو حسن ومنها ما هو قبيح، ومن عقلائهم وأهل النظر الصحيح والمزاج المعتدل منهم من يمكنه إصابة وجه الحق في معرفة ذلك، ومتفقون كذلك على أن الحسن ما كان أدوم فائدة وإن كان مؤلماً في الحال، وأن القبيح ما جر إلى فساد في النظام الخاص بالشخص أو الشامل له ولمن يتصل به، وإن عظمت لذته الحاضرة، ولكنهم يختلفون في النظر إلى كل عمل بعينه اختلافهم في أمزجتهم وسحنهم ومناشئهم وجميع ما يكتنف بهم، فلذلك ضربوا إلى الشر في كل وجه، وكل يظن أنه إنما يطلب نافعاً ويتقي ضاراً.

فالعقل البشري وحده ليس في استطاعته أن يبلغ بصاحبه سعادته في هذه الحياة، اللهم إلا في قليل ممن لم يعرفهم الزمن، فإن كان لهم من الشأن العظيم ما به عرفهم أشار إليهم

الدهر بأصابع الأجيال، وقد سبقت الإشارة إليهم فيما مر.

وليست عقول الناس سواء في معرفة الله تعالى، ولا في معرفة حياة بعد هذه الحياة، فهم وإن اتفقوا في الخضوع لقوة أسمى من قواهم، وشعر معظمهم بيوم بعد هذا اليوم، ولكن أفسدت الوثنية عقولهم، وانحرفت بها عن مسلك السعادة، فليس في سعة العقل الإنساني في الأفراد كافة أن يعرف من الله ما يجب أن يُعرف، ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغي أن يُفهم، ولا أن يقرر لكل نوع من الأعمال جزاءه في تلك الدار الآخرة، وإنما قد تيسر ذلك لقليل ممن اختصه الله بكمال العقل، ونور البصيرة، وإن لم ينل شرف الاقتداء بهدى نبوي، ولو بلغه لكان أسرع إلى اتباعه، وهؤلاء ربما يصلون بأفكارهم إلى العرفان من وجه غير ما يليق في الحقيقة أن ينظر منه إلى الجلال الإلهي.

ثم من أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشري أن يصل إليه وحده، وهو تفصيل اللذائذ والآلام، وطرق المحاسبة على الأعمال ولو بوجه ما، ومن الأعمال ما لا يمكن أن يعرف وجه الفائدة فيه، لا في هذه الحياة ولا فيما بعدها، كصور العبادات، كما يرى في أعداد الركعات، وبعض الأعمال في الحج في الديانة الإسلامية، وكبعض الاحتفالات في الديانة الموسوية، وضروب التوسل والزهادة في الديانة العيسوية، كل ذلك مما لا يمكن للعقل البشري أن يستقل بمعرفة وجه الفائدة فيه، ويعلم الله أن فيه سعادته.

لهذا كله كان العقل الإنساني محتاجاً، في قيادة القوى

الإدراكية والبدنية إلى ما هو خير له في الحياتين، إلى معين يستعين به في تحديد أحكام الأعمال وتعيين الوجه في الاعتقاد بصفات الألوهية، ومعرفة ما ينبغي أن يعرف من أحوال الآخرة، ولا يكون لهذا المعين سلطان على نفسه حتى يكون من جنسه، ليفهم منه أو عنه ما يقول، وحتى يكون ممتازاً على سائر الأفراد بأمر فائق على ما عرف في العادة وما عرف في سنة الخليقة، ويكون بذلك مبرهناً على أنه يتكلم عن الله الذي يعلم مصالح العباد على ما هي عليه، ويعلم صفاته الكمالية، وما ينبغي أن يعرف منها، والحياة الآخرة، وما أعد فيها، فيكون الفهم عنه، والثقة بأنه يتكلم عن العليم الخبير، معيناً للعقل على ضبط ما تشتت عليه، أو درك ما ضعف عن ادراكه، وذلك المعين هو النبي.

النبوة تحدد ما ينبغي أن يلحظ في جانب واجب الوجود من الصفات، وما يحتاج إليه البشر كافة من ذلك، وتشير إلى خاصتهم بما يمكن لهم أن يفضلوا به غيرهم من مقامات عرفانهم، لكنها لا تحتم إلا ما فيه الكفاية العامة، فجاءت النبوات مطالبة بالاعتقاد بوجود الله، وبوحدانيته، وبالصفات التي أثبتناها، على الوجه الذي بيناه، وأرشدت إلى طرق الاستدلال على ذلك، فوجوب المعرفة على هذا الوجه المخصوص، وحسن المعرفة، وحظر الجهالة والجحود بشيء أوجبه الشرع في ذلك وقبحه مما لا يعرف إلا من طريق الشرع معرفة تطمئن بها النفس، ولو استقل عقل بشري بذلك لم يكن على الطريق المطلوب من الجزم واليقين والاقتناع الذي هو عماد الطمأنينة،

فإن زيد على ذلك أن العرفان، على ما بينه الشرع، يستحق المثوبة المعينة فيه، وضده يستحق العقوبة التي نص عليها، كانت طريق معرفة الوجوب شرعية محضة، غير أن ذلك لا ينافي أن معرفة الله على هذه الصفة حسنة في نفسها، وإنما جاء الشرع مبيناً للواقع، فهو ليس محدث الحُسْن، ونصوصه تؤيد ذلك، وأذكر مثالاً من كثير:

قال تعالى على لسان يوسف: ﴿**أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار**﴾[٦] يشيرون بذلك إشارة واضحة إلى أن تفرق الآلهة يفرق بين البشر في وجهة قلوبهم إلى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم، وهو يذهب بكل قوتهم إلى التعصب لما وجه قلبه إليه، وفي ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى، أما اعتقاد جميعهم بإله واحد فهو توحيد لمنازع نفوسهم إلى سلطان واحد، يخضع الجميع لحكمه، وفي ذلك نظام أُخوتهم، وهي قاعدة سعادتهم، وإليها مآلهم فيما أعتقد وإن طال الزمان، فكما جاء الشرع مطالباً بالاعتقاد جاء هادياً لوجه الحسن فيه.

النبوة تحدد أنواع الأعمال التي تناط بها سعادة الإنسان في الدارين، وتطالبه عن الله بالوقوف عند الحدود التي حددتها، وكثيراً ما تبين له مع ذلك وجوه الحسن أو القبح فيما أمر به أو نهى عنه، فوجوب عمل من المأمور به، أو الندب إليه، وحظر عمل، أو كراهته من المنهي عنه على الوجه الذي حددته الشريعة، وعلى أنه مثاب عليه بأجر كذا، ومجازى عليه بعقوبة

---

(٦) سورة يوسف: الآية ٣٩.

كذا، مما لا يستقل العقل بمعرفته، بل طريقة معرفته شرعية، وهو لا ينافي أيضاً أن يكون المأمور به حسناً في ذاته، بمعنى أنه مما يؤدي إلى منفعة دنيوية أو أخروية، باعتبار أثره في أحوال المعيشة، أو في صحة البدن، أو حفظ النفس أو المال أو العرض، أو في زيادة تعلق القلب بالله، جل شأنه، كما هو مفصل في الأحكام الشرعية. وقد يكون من الأعمال ما لا يمكن درك حسنه، ومن المنهيات ما لا يعرف وجه قبحه، وهذا النوع لا حسن له إلا الأمر ولا قبح إلا النهي. والله أعلم.

الرسالة العامة

نريد من الرسالة العامة، بعثة الرسل لتبليغ شيء من العقائد والأحكام عن الله خالق الإنسان وموفيه ما لا غنى له عنه، كما وفى غيره من الكائنات سداد حاجتها، ووقاء وجودها، على القدر الذي حدد لها في رتبة نوعها من الوجود.

والكلام في هذا البحث من وجهين:

الأول: وهو أيسرهما على المتكلم، وجه أن الاعتقاد ببعثة الرسل ركن من أركان الإيمان، فيجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يعتقدا بأن الله أرسل رسلاً من البشر، مبشرين بثوابه ومنذرين بعقابه، قاموا بتبليغ أممهم ما أمرهم بتبليغه من تنزيه لذاته وتبيين لسلطانه القاهر على عباده، وتفصيل لأحكامه في فضائل أعمال وصفات يطالبهم بها، وفي مثالب فعال وخلائق ينهاهم عنها، وأن يعتقدا بوجوب تصديقهم في أنهم يبلغون ذلك عن الله، ووجوب الاقتداء بهم في سيرهم، والائتمار بما أمروا به والكف عما نهوا عنه، وأن يعتقدا بأن منهم من أنزل الله عليه كتباً تشتمل على ما أراد أن يبلغوه من الخبر عنه ومن الحدود والأحكام التي علم الخير لعباده في الوقوف عندها، وأن هذه الكتب التي نزلت عليهم حق، وأن يؤمنا بأنهم مؤيدون من العناية الإلهية بما لا يعهد للعقول ولا للاستطاعة البشرية، وأن هذا الأمر الفائق

لمعروف البشر هو المعجزة الدالة على صدق النبي في دعواه، فمتى ادعى الرسول النبوة، واستدل عليها بالمعجزة، وجب التصديق برسالته.

ومن لوازم ذلك بالضرورة وجوب الاعتقاد بعلو فطرتهم، وصحة عقولهم، وصدقهم في أقوالهم، وأمانتهم في تبليغ ما عهد إليهم أن يبلغوه، وعصمتهم من كل ما يشوه السيرة البشرية وسلامة أبدانهم مما تنبو عنه الأبصار وتنفر منه الأذواق السليمة، وأنهم منزهون عما يضاد شيئاً من هذه الصفات المتقدمة، وأن أرواحهم ممدودة من الجلال الإلهي بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية.

أما فيما عدا ذلك فهم بشر يعتريهم ما يعتري سائر أفراده، يأكلون ويشربون وينامون ويسهون وينسون فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام، ويمرضون وتمتد إليهم أيدي الظلمة، وينالهم الاضطهاد، وقد يقتلون.

* * *

المعجزة

المعجزة: ليست من نوع المستحيل عقلاً، فإن مخالفة السير الطبيعي المعروف في الإيجاد مما لم يقم دليل على استحالته، بل ذلك مما يقع، كما يشاهد في حال المريض يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات، مع وجود العلة التي تزيد الضعف وتساعد الجوع على الاتلاف.

فإن قيل: إن ذلك لا بد أن يكون تابعاً لناموس آخر

طبيعي، قلنا: إن واضع الناموس هو موجد الكائنات، فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات، غاية ما في الأمر أننا لا نعرفها، ولكننا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضل من عنده.

على أننا بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار، يسهل علينا العلم بأنه لا يمتنع عليه أن يحدث الحادث على أي هيئة، وتابعاً لأي سبب، إذا سبق في علمه أنه يحدثه كذلك.

المعجزة لا بد أن تكون مقرونة بالتحدي عند دعوى النبوة، وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة من ظهرت على يده، لأن النبي يستند إليها في دعواه أنه مبلغ عن الله، فإصدار الله لها عند ذلك يعد تأييداً منه له في تلك الدعوى، ومن المحال على الله أن يؤيد الكاذب، فإن تأييد الكاذب تصديق له، وتصديق الكاذب كذب، وهو محال على الله. فمتى ظهرت المعجزة، وهي مما لا يقدر عليه البشر، وقارن ظهورها دعوى النبوة، علم بالضرورة أن الله ما أظهرها إلا تصديقاً لمن ظهرت على يده، وإن كان هذا العلم قد يقارنه الإنكار مكابرة.

وأما السحر وأمثاله فإن سلم أن مظاهره فائقة عن آثار الأجسام والجسمانيات، فهي لا تعلو عن متناول القوى الممكنة، فلا يقارب المعجزة في شيء.

* * *

أما وجوب تلك الصفات المتقدمة للأنبياء، فلأنهم لو انحطت فطرهم عن فطر أهل زمانهم، أو تضاءلت أرواحهم

لسلطان نفوس أخر، أو مس عقولهم شيء من الضعف، لما كانوا أهلاً لهذا الاختصاص الإلهي الذي يفوق كل اختصاص: اختصاصهم بوحيه، والكشف لهم عن أسرار علمه.

ولو لم تسلم أبدانهم عن المنفرات، لكان انزعاج النفس لمرآهم حجة للمنكر في إنكار دعواهم، ولو كذبوا أو خانوا أو قبحت سيرتهم لضعفت الثقة بهم، ولكانوا مضلين لا مرشدين، فتذهب الحكمة من بعثهم، والأمر كذلك لو أدركهم السهو أو النسيان فيما عهد إليهم تبليغه من العقائد والأحكام.

أما وقوع الخطأ منهم فيما ليس من الحديث عن الله، ولا له مدخل في التشريع، فجوزه بعضهم، والجمهور على خلافه، وما ورد من مثل أن النبي ﷺ، نهى عن تأبير النخل، ثم أباحه لظهور أثره في الآثمار، فإنما فعله عليه الصلاة والسلام، ليعلم الناس أن ما يتخذونه من وسائل الكسب، وطرق الصناعات فهو موكول لمعارفهم وتجاربهم، ولا حظر عليهم فيه ما دامت الشرائع مرعية والفضائل محمية، وما حكاه الله من قصة آدم وعصيانه بالأكل من الشجرة فمما خفي فيه سر النهي عن الأكل، والمؤاخذة عليه، وغاية ما علمناه من حكمته أنه كان سبباً لعمارة الأرض ببني آدم، كأن النهي والأكل رمزان إلى طورين من أطوار آدم، عليه السلام، أو مظهران من مظاهر النوع الإنساني في الوجود. والله أعلم، ومن العسر إقامة الدليل العقلي أو إصابة دليل شرعي يقطع بما ذهب إليه الجمهور.

حاجة البشر إلى الرسالة

الوجه الثاني: سبق لك في الفصل السابق ما يهم الكلام عليه من الوجه الأول، وهو وجه ما يجب على المؤمن اعتقاده في الرسل، والكلام في هذا الفصل موجه، إن شاء الله، إلى بيان الحاجة إليهم، وهو معترك الافهام، ومزلة الاقدام، ومزدحم الكثير من الأفكار والأوهام.

ولسنا بصدد الإتيان بما قاله الأولون، ولا عرض ما ذهب إليه الآخرون، ولكن نلزم ما التزمنا في هذه الوريقات من بيان المعتقد، والذهاب إليه من أقرب الطرق، من غير نظر إلى ما مال إليه المخالف أو استقام عليه الموافق، اللهم إلا إشارة من طرف خفي أو الماعاً لا يستغني عنه القول الجلي.

وللكلام في بيان الحاجة إلى الرسل مسلكان:

الأول: وقد سبق الإشارة إليه يبتدىء من الاعتقاد ببقاء النفس الإنسانية بعد الموت، وأن حياة أخرى بعد الحياة الدنيا، تتمتع فيها بنعيم أو تشقى فيها بعذاب أليم، وأن السعادة والشقاء في تلك الحياة الباقية معقودان بأعمال المرء في حياته الفانية، سواء كانت تلك الأعمال قلبية كالاعتقادات والمقاصد والإرادات، أو بدنية كأنواع العبادات والمعاملات.

اتفقت كلمة البشر، موحدين ووثنيين، مليين وفلاسفة، إلا قليلاً لا يقام لهم وزن، على أن لنفس الإنسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن، وأنها لا تموت موت فناء مطلقاً، وإنما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء، وإن اختلفت منازعهم في تصوير ذلك البقاء، وفيما تكون عليه النفس، وتباينت

مشاربهم في طرق الاستدلال عليه، فمن قائل بالتناسخ[١] في أجساد البشر أو الحيوان على الدوام، ومن ذاهب إلى أن التناسخ ينتهي عندما تبلغ النفس أعلى مراتب الكمال.

ومنهم من قال: إنها متى فارقت الجسد عادت إلى تجردها من المادة، حافظة لما فيه لذتها أو ما به شقوتها.

ومنهم من رأى أنها تتعلق بأجسام أثيرية ألطف من هذه الأجسام المرئية. وكان اختلاف المذاهب في كنه السعادة والشقاء الأخرويين، وفيما هو متاع الحياة الآخرة، وفي الوسائل التي تعد للنعيم أو تبعد عن النكال الدائم. وتضارب آراء الأمم فيه، قديماً وحديثاً، مما لا تكاد تحصى وجوهه.

هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة، المنبث في جميع الأنفس، عالمها وجاهلها، وحشيها ومستأنسها، باديها وحاضرها، قديمها وحديثها، لا يمكن أن يعد ضلة عقلية، أو نزعة وهمية، وإنما هو **الإلهامات**[٢] التي اختص بها هذا النوع،

---

(١) نظرية قديمة، قال بها فيثاغورس، أخذاً عن الفلسفة الهندية، وهي تعني انتقال النفس بعد الموت إلى جسم آخر، سواء أكان نباتاً أو حيواناً أو إنساناً، ومن المتصوفة من يرى تقسيم التناسخ بحسب ما تنتقل إليه النفس، فإذا انتقلت من إنسان إلى إنسان سمي «نسخاً». وإذا انتقلت من إنسان إلى حيوان سمي «مسخاً»، وإذا انتقلت من إنسان إلى نبات سمي «فسخاً»، وإذا انتقلت من إنسان إلى جماد سمي «رسخاً». . . انظر (المعجم الفلسفي) للدكتور مراد وهبة (وآخرين) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م مادة «تناسخ».

(٢) المراد هنا «بالالهامات»: الشعور العام الموجود من أصل الفطرة، وليس «الالهامات» بمعنى ما يقابل «المعقولات» وسيأتي الحديث عن هذا المعنى الأخير فيما بعد.

كما ألهم الإنسان أن عقله وفكره هما عماد بقائه في هذه الحياة الدنيا.

وإن شذ أفراد منه، ذهبوا إلى أن العقل والفكر ليسا بكافيين للإرشاد في عمل ما، أو إلى أنه لا يمكن للعقل أن يوقن باعتقاد، ولا للفكر أن يصل إلى مجهول، بل قالوا أن لا وجود للعالم إلا في اختراع الخيال، وأنهم شاكون حتى في أنهم شاكون[٣].

ولم يطعن شذوذ هؤلاء في صحة الإلهام العام المشعر لسائر أفراد النوع أن الفكر والعقل هما ركن الحياة وأسس البقاء إلى الأجل المحدود.

كذلك قد ألهمت العقول وأشعرت النفوس أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للإنسان في الوجود، بل الإنسان ينزع هذا الجسد كما ينزع الثوب عن البدن، ثم يكون حياً باقياً في طور آخر وإن لم يدرك كنهه.

ذلك إلهام عقلي يكاد يزاحم البديهة في الجلاء، يشعر كل نفس أنها خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية، من طرق غير محصورة، شيقة إلى لذائذ غير محدودة، ولا واقفة عند غاية، مهيأة لدرجات من الكمال لا تحددها أطراف المراتب والغايات، معرضة لآلام من الشهوات، ونزعات الأهواء، ونزوات الأمراض على الأجساد، ومصارعة الأجواء والحاجات،

---

(٣) الإشارة إلى مذهب «اللاأدرية» الذين ينكرون قيمة العقل وقدرته على المعرفة.

وضروب من مثل ذلك لا تدخل تحت عد ولا تنتهي عند حد. إلهام يستلفتها بعد هذا الشعور إلى أن واهب الوجود للأنواع إنما قدر الاستعداد بقدر الحاجة في البقاء، ولم يعهد في تصرفه العبث والكيل الجزاف، فما كان استعداده لقبول ما لا يتناهى من معلومات وآلام ولذائذ وكمالات لا يصح أن يكون بقاؤه قاصراً على أيام أو سنين معدودات.

شعور يهيج بالأرواح إلى تحسس هذا البقاء الأبدي، وما عسي أن تكون عليه متى وصلت إليه، وكيف الاهتداء، وأين السبيل وقد غاب المطلوب وأعوز الدليل. شعورنا بالحاجة إلى استعمال عقولنا في تقويم هذه المعيشة القصيرة الأمد لم يكفنا في الاستقامة على المنهج الأقوم، بل لزمتنا الحاجة إلى التعليم والإرشاد، وقضاء الأزمنة والاعصار في تقويم الأنظار، وتعديل الأفكار، وإصلاح الوجدان، وتثقيف الأذهان، ولا نزال إلى الآن من هم هذه الحياة الدنيا في اضطراب، لا ندري متى نتخلص منه، وفي شوق إلى طمأنينة لا نعلم متى ننتهي إليها.

هذا شأننا في فهم عالم الشهادة، فماذا نؤمل من عقولنا وأفكارنا في العلم بما في عالم الغيب؟ هل فيما بين أيدينا من الشاهد معالم نهتدي بها إلى الغائب؟ وهل في طرق الفكر ما يوصل كل أحد إلى معرفة ما قدر له في حياة يشعر بها، وبأن لا مندوحة عن القدوم عليها، ولكن لم يوهب من القوة ما ينفذ إلى تفصيل ما أعد له فيها، والشؤون التي لا بد أن يكون عليها بعد مفارقة ما هو فيه، أو إلى معرفة بيد من يكون تصريف تلك الشؤون؟؟، هل في أساليب النظر ما يأخذ بك إلى اليقين

بمناطها من الاعتقادات والأعمال، وذلك الكون مجهول لديك، وتلك الحياة في غاية الغموض بالنسبة إليك؟؟.

كلا . . . فإن الصلة بين العالمين تكاد تكون منقطعة في نظر العقل ومرامي المشاعر، ولا اشتراك بينهما إلا فيك أنت فالنظر في المعلومات الحاضرة لا يوصل إلى اليقين بحقائق تلك العوالم المستقبلة.

أفليس من حكمة الصانع الحكيم - الذي أقام أمر الإنسان على قاعدة الإرشاد والتعليم، الذي خلق الإنسان وعلمه البيان، علمه الكلام للتفاهم والكتاب للتراسل - أن يجعل من مراتب الأنفس البشرية مرتبة يعد لها، بمحض فضله، بعض من يصطفيه من خلقه، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، يميزهم بالفطر السليمة، ويبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراف بأنوار علمه والأمانة على مكنون سره، مما لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم لفاضت له نفسه، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمته، فيشرفون على الغيب بإذنه، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه، ويكونون في مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين، نهاية الشاهد وبداية الغائب، فهم في الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها، وهم وفد الآخرة في لباس من ليس من سكانها، ثم يتلقون من أمره أن يحدثوا عن جلاله وما خفي على العقول من شؤون حضرته الرفيعة بما يشاء أن يعتقده العباد فيه، وما قدر أن يكون له مدخل في سعادتهم الأخروية، وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لا بد لهم من علمه، معبرين عنه بما تحتمله طاقة عقولهم ولا يبعد عن متناول أفهامهم، وأن يبلغوا عنه شرائع

عامة، تحدد لهم سيرهم في تقويم نفوسهم وكبح شهواتهم، وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم وشقائهم في ذلك الكون المغيب عن مشاعرهم بتفصيله، اللاحق علمه بأعماق ضمائرهم في إجماله. ويدخل في ذلك جميع الأحكام المتعلقة بكليات الأعمال، ظاهرة وباطنة، ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات، حتى تقوم بهم الحجة، ويتم الاقناع بصدق الرسالة، فيكونون بذلك رسلاً من لدنه إلى خلقه مبشرين ومنذرين.

لا ريب أن الذي أحسن كل شيء خلقه، وأبدع في كل كائن صنعه، وجاد على كل حي بما إليه حاجته، ولم يحرم من رحمته حقيراً ولا جليلاً من خلقه، يكون من رأفته بالنوع الذي أجاد صنعه، وأقام له من قبول العلم ما يقوم مقام المواهب التي اختص بها غيره، أن ينقذه من حيرته، ويخلصه من التخبط في أهم حياتيه، والضلال في أفضل حاليه.

يقول قائل: ولم لم يودع في الغرائز ما تحتاج إليه من العلم؟، ولم يضع فيها الانقياد إلى العمل وسلوك الطريق المؤدية إلى الغاية في الحياة الآخرة؟ وما على هذا النحو من عجائب الرحمة في الهداية والتعليم؟ وهو قول يصدر عن شطط العقل، والغفلة عن موضوع البحث، وهو النوع الإنساني، ذلك النوع على ما به، وما دخل في تقويم جوهره من الروح المفكر، وما اقتضاه ذلك من الاختلاف في مراتب الاستعداد باختلاف أفراده، وألا يكون كل فرد منه مستعداً لكل حال بطبعه، وأن يكون وضع وجوده على عماد البحث والاستدلال، فلو ألهم

حاجاته كما تلهم الحيوانات لم يكن هو ذلك النوع، بل كان إما حيواناً آخر كالنحل والنمل أو ملكاً من الملائكة ليس من سكان هذه الأرض.

المسلك الثاني: في بيان الحاجة إلى الرسالة يؤخذ من طبيعة الإنسان نفسه: أرتنا الأيام، غابرها وحاضرها، أن من الناس من يختزل نفسه من جماعة البشر، وينقطع إلى بعض الغابات أو إلى رؤوس الجبال، ويستأنس إلى الوحش، ويعيش عيش الأوابد من الحيوان، يتغذى بالأعشاب وجذور النبات، ويأوي إلى الكهوف والمغاور، ويتقي بعض العوادي عليه بالصخور والأشجار، ويكتفي من الثياب بما يخصف[٤] من ورق الشجر أو جلود الهالك من حيوان البر، ولا يزال كذلك حتى يفارق الدنيا.

لكن مثل هذا مثل النحلة تنفرد عن الدبر[٥] وتعيش عيشة لا تتفق مع ما قدر لنوعها، وإنما الإنسان نوع من تلك الأنواع التي غرز في طبعها أن تعيش مجتمعة، وإن تعددت فيها الجماعات، على أن يكون لكل واحد من الجماعة عمل يعود على المجموع في بقائه، وللمجموع من العمل ما لا غنى للواحد عنه في نمائه وبقائه، وأودع في كل شخص من أشخاصها شعور ما بحاجة إلى سائر أفراد الجماعة التي يشملها اسم واحد، وتاريخ وجود الإنسان شاهد بذلك، فلا حاجة إلى الإطالة في بيانه، وكفاك من

---

(٤) يلصق ويطبق.

(٥) الدبر، بفتح الدال المشددة وسكون الباء: جماعة النحل والزنابير.

الدليل على أن الإنسان لا يعيش إلا في جملة، وما وهبه من قوة النطق، فلم يخلق لسانه مستعداً لتصوير المعاني في الألفاظ وتأليف العبارات إلا لاشتداد الحاجة به إلى التفاهم وليس الاضطرار إلى التفاهم بين اثنين أو أكثر إلا الشهادة بأن لا غنى لأحدهم عن الآخر.

حاجة كل فرد من الجماعة إلى سائرها مما لا يشتبه فيه، وكلما كثرت مطالب الشخص في معيشته ازدادت به الحاجة إلى الأيدي العاملة، فتمتد الحاجة، وعلى أثرها الصلة، من الأصل إلى العشيرة، ثم إلى الأمة، وإلى النوع بأسره، وأيامنا هذه شاهدة على أن الصلة التابعة للحاجة قد تعم النوع، كما لا يخفى هذه الحاجة ـ خصوصاً في الأمة التي حققت عنوانها لها ـ صلات وعلائق ميزتها عمن سواها، حاجة في البقاء، حاجة في التمتع بمزايا الحياة، حاجة في جلب الرغائب ودفع المكاره من كل نوع.

لو جرى أمر الإنسان على أساليب الخلقة في غيره لكانت هذه الحاجة من أفضل عوامل المحبة بين أفراده، عمل يشعر كل نفس أن بقاءها مرتبط ببقاء الكل.

فالكل منها بمنزلة بعض قواها، المسخرة لمنافعها، ودرء مضارها، والمحبة عماد السلم ورسول السكينة إلى القلوب، هي الدافع لكل من المتحابين على العمل لمصلحة الآخر، الناهض بكل منهما للمدافعة عنه في حالة الخطر، فكان من شأن المحبة أن تكون حفاظاً لنظام الأمم وروحاً لبقائها، وكان من حالها أن تكون ملازمة للحاجة على مقتضى سنة الكون، فإن المحبة حاجة

لنفسك إلى من تحب، أو ما تحب. فإن اشتدت كانت ولعاً وعشقاً.

لكن. . . كان من قوانين المحبة أن تنشأ وتدوم بين متحابين إذا كانت الحاجة إلى ذات المحبوب أو ما هو فيها لا يفارقها، ولا يكون هذا النوع منها في الإنسان إلا إذا كان منشؤه أمراً في روح المحبوب وشمائله التي لا تفارق ذاته، حتى تكون لذة الوصول في نفس الاتصال لا في عارض يتبعه، فإذا عرض التبادل والتعاوض، ولوحظ في العلاقة بينهما، تحولت المحبة إلى رغبة في الانتفاع بالعوض، وتعلقت بالمنتفع به لا بمصدر الانتفاع، وقام بين الشخصين مقام المحبة إما سلطان القوة أو ذلة المخافة أو الدهان والخديعة من الجانبين.

يحب الكلب سيده ويخلص له، ويدافع عنه دفاع المستميت، لما يرى أنه مصدر الإحسان إليه في سداد عوزه، فصورة شبعه وريه وحمايته مقرونة في شعوره بصورة من يكفلها له، فهو يتوقع فقدها بفقده، فيحرص عليه حرصه على حياته، ولو أنه انتقل من حوزته إلى حوزة آخر وغاب عنه السنين ثم رآه معرضاً لخطر ما عادت إليه تلك الصورة يصل بعضها بعضاً، واندفع إلى خلاصه بما تمكنه القوة، ذلك أن الإلهام الذي هدى به شعور الكلب ليس مما تتسع به المذاهب، فوجدانه يتردد بين الإحسان ومصدره، وليس له وراءهما مذهب، فحاجته في سد عوزه هي حاجته إلى القائم بأمره، فيحبه محبته لنفسه، ولا يخس منها شوب التعاوض في الخدمة.

أما الإنسان ـ وما أدراك ما هو ـ فليس أمره على ذلك، ليس

ممن يلهم ولا يتعلم، ولا ممن يشعر ولا يتفكر، بل كان كماله النوعي في إطلاق مداركه عن القيد، ومطالبه عن النهايات، وتسليمه على صغره إلى العالم الأكبر على جلالته وعظمه، يصارعه بعوامله، وهي غير محصورة، حتى يعتصر منه منافعه، وهي غير محدودة، وإبداعه من قوى الإدراك والعمل ما يعينه على المغالبة ويمكنه من المطالبة بسعيه ورأيه، ويتبع ذلك أن يكون له في كل كائن مما يصل إليه لذة، وبجوار كل لذة ألم أو مخافة، فلا تنتهي رغائبه إلى غاية، ولا تقف مخاوفه عند نهاية: **﴿إن الإنسان خلق هلوعاً، إذا مسه الشر جزوعاً، وإذا مسه الخير منوعاً﴾**[٦].

تفاوتت أفراده في مواهب الفهم، وفي قوى العمل، وفي الهمة والعزم، فمنهم المقصر ضعفاً أو كسلاً، المتطاول في الرغبة شهوة وطمعاً، يرى في أخيه أنه العون له على ما يريد من شؤون وجوده، لكنه يذهب من ذلك إلى تخيل اللذة في الاستئثار بجميع ما في يده، ولا يقنع بمعاوضته في ثمرة من ثمار عمله، وقد يجد اللذة في أن يتمتع ولا يعمل، ويرى الخير في أن يقيم مقام العمل إعمال الفكر في استنباط ضروب الحيل، ليتمتع وإن لم ينفع، ويغلب عليه ذلك حتى يخيل له أن لا ضير عليه لو انفرد بالوجود عمن يطلب مغالبته، ولا يبالي بإرساله إلى عالم العدم بعد سلبه، فكلما حثه الذكر والخيال إلى دفع مخافة، أو الوصول إلى لذيذ، فتح له الفكر باباً من الحيلة، أو هيأ

(٦) سورة المعارج: الآية ٢٠.

وسيلة لاستعمال القوة فقام التناهب مقام التواهب، وحل الشقاق محل الوفاق، وصار الضابط لسيرة الإنسان إما الحيلة وإما القهر.

اللذة الروحانية

هل وقف الهوى بالإنسان عند التنافس في اللذائذ الجسدانية، وتجالد أفراده طمعاً في وصول كل إلى ما يظنه غاية مطلبه، وإن لم تكن له غاية؟؟.

كلا.. ولكن قدر له أن تكون له لذائذ روحانية، وكان من أعظم همه أن يشعر بالكرامة له في نفس غيره ممن تجمعه معهم جامعة ما، حسبما يمتد إليه نظره، وقد بلغت هذه الشهوة حداً من الأنفس كادت تتغلب على جميع الشهوات، وأخذت لذة الوصول إليها من الأرواح مكاناً كاد لا تصعد إليه سائر اللذات، وهي أفضل العوامل في إحراز الفضائل، وتمكين الصلات بين الأفراد والأمم، لو صرفت فيما سيقت لأجله، ولكن انجرف بها السبيل كما انجرف بغيرها للأسباب التي أشرنا إليها من التفاوت في مراتب الإدراك والهمة والعزيمة، حتى خيل للكثير من العقلاء أن يسعى إلى إعلاء منزلته في القلوب بإخافة الآمن وإزعاج الساكن وإشعار القلوب رهبة المخافة لا تهيب الحرمة.

هل يمكن مع هذا أن يستقيم أمر جماعة بني نظامهم وعلق بقاؤهم في الحياة على تعاونهم، ورفد بعضهم بعضاً في الأعمال؟ أو لا تكون هذه الأفاعيل السابق ذكرها، سبباً في تفانيهم؟ لا ريب أن البقاء على تلك الأحوال من ضروب

المحال، فلا بد للنوع الإنساني في حفظ بقائه من المحبة أو ما ينوب منابها.

لجأ بعض أهل البصيرة في أزمنة مختلفة إلى العدل، وظنوا، كما ظن بعض العارفين ونطق به في كلمة جليلة، أن العدل نائب المحبة.

نعم.. لا يخلو القول من حكمة، ولكن.. من الذي يضع قواعد العدل، ويحمل الكافة على رعايتها؟؟.. قيل: ذلك هو العقل، فكما كان الفكر والذكر والخيال ينابيع الشقاء، كذلك تكون وسائل السعادة، وفيها مستقر السكينة، وقد رأينا أن اعتدال الفكر وسعة العلم وقوة العقل وأصالة الحكم يذهب بكثير من الناس إلى ما وراء حجب الشهوات، وتعلو بهم فوق ما تخيله المخاوف، فيعرفون لكل حق حرمته، ويميزون بين لذة ما يفنى ومنفعة ما يبقى، وقد جاء منهم أفراد في كل أمة، وضعوا أصول الفضيلة، وكشفوا وجوه الرذيلة، وقسموا أعمال الإنسان إلى ما تحضر لذته وتسوء عاقبته، وهو ما يجب اجتنابه، وإلى ما قد يشق احتماله ولكن تسر مغبته، وهو ما يجب الأخذ به. ومنهم من أنفق في الدعوة إلى رأيه نفسه وماله، وقضى شهيد إخلاصه في دعوة قومه إلى ما يحفظ نظامهم، فهؤلاء العقلاء هم الذين يضعون قواعد العدل، وعلى أهل السلطان أن يحملوا الكافة على رعايتها، وبذلك يستقيم أمر الناس.

هذا قول لا يجافي الحق ظاهره، ولكن.. هل سمع في سيرة الإنسان، وهل ينطبق على سنته أن يخضع كافة أفراده أو الغالب منهم لرأي العاقل لمجرد أنه الصواب؟ وهل كفى في

اقناع جماعة منه، كشعب أو أمة، قول عاقلهم: إنهم مخطئون، وإن الصواب فيما يدعوهم إليه، وإن أقام على ذلك من الأدلة ما هو أوضح من الضياء وأجلى من ضرورة المحبة للبقاء؟؟..

كلا.. لم يعرف ذلك في تاريخ الإنسان، ولا هو مما ينطبق على سنته. فقد تقدم لنا أن مهب الشقاء هو تفاوت الناس في الإدراك، وهم مع ذلك يدعون المساواة في العقول والتقارب في الأصول، ولا يعرف جمهورهم من حال الفاضل إلا كما يعرف من أمر الجاهل، ومن لم يكن في مرتبتك من العقل لم يذق مذاقك من الفضل، فمجرد البيان العقلي لا يدفع نزاعاً، ولا يرد طمأنينة، وقد يكون القائم على ما وضع من شريعة العقل ممن يزعم أنه أرفع من واضعها، فيذهب بالناس مذهب شهواته، فتذهب حرمتها، ويتهدم بناؤها، ويفقد ما قصد بوضعها.

الحاجة الأخروية

أضف إلى ما سبق من لوازم نزعات الفكر ونزعات الأهواء شعوراً هو ألصق بالغريزة البشرية، وأشد لزوماً لها، كل إنسان، مهما علا فكره وقوي عقله، أو ضعفت فطنته وانحطت فطرته، يجد من نفسه أنه مغلوب لقوة أرفع من قوته وقوة ما أنس منه الغلبة عليه مما حوله، وأنه محكوم بإرادة تصرفه وتصرف ما هو فيه من العوالم في وجوه قد لا يعرفها معرفة العارفين، ولا تتطرق إليها إرادة المختارين، تشعر كل نفس أنها مسبوقة لمعرفة تلك القوة العظمى، فتطلبها من حسها تارة ومن عقلها أخرى، ولا سبيل لها إلا الطريق التي حددت لنوعها، وهي طريق النظر، فذهب كل في طلبها وراء رائد الفكر، فمنهم من تأولها ببعض الحيوانات، لكثرة نفعها أو شدة ضررها، ومنهم من تمثلت له في بعض الكواكب، لظهور أثرها، ومنهم من حجبته الأشجار والأحجار، لاعتبارات له فيها، ومنهم من تبدت له آثار قوى مختلفة في أنواع متفرقة، تتماثل في أفراد كل نوع وتتخالف بتخالف الأنواع، فجعل لكل نوع إلهاً.

ولكن. . . كلما رق الوجدان، ولطفت الأذهان، ونفذت البصائر، ارتفع الفكر، وجلت النتائج، فوصل من بلغ به علمه بعض المنازل من ذلك إلى معرفة هذه القدرة الباهرة، واهتدى

إلى أنها قدرة واجب الوجود، غير أن من أسرار الجبروت ما غمض عليه، فلم يسلم من الخبط فيه، ثم لم يكن له من الميزة الفائقة في قومه ما يحملهم على الاهتداء بهديه، فبقي الخلاف دائعاً والرشد ضائعاً.

اتفق الناس في الإذعان لما فاق قُدَرهم وعلا متناول استطاعتهم، ولكنهم اختلفوا في فهم ما تلجئهم الفطرة إلى الإذعان له، اختلافاً كان أشد أثراً في التقاطع بينهم، وإثارة أعاصير الشقاء فيهم من اختلافهم في فهم النافع والضار، لغلبة الشهوات عليهم.

إن كان الإنسان قد فطر على أن يعيش في جملة، ولم يمنح من تلك الفطرة ما منحه النحل وبعض أفراد النمل مثلاً من الإلهام الهادي إلى ما يلزم لذلك، وإنما ترك إلى فكره يتصرف به على نحو ما سبق، كما فطر على الشعور بقاهر تنساق نفسه بالرغم عنها إلى معرفته، ولم يفض عليه مع ذلك الشعور عرفانه بذات ذلك القاهر ولا صفاته وإنما ألقى به في مطارح النظر، تحمله الأفكار في مجاريها، وترمي به إلى حيث يدري ولا يدري، وفي كل ذلك الويل على جامعته، والخطر على وجوده، فهل مني هذا النوع بالنقص، ورزىء بالقصور عن مثل ما بلغه أضعف الحيوانات وأحطها في منازل الوجود؟؟.. نعم.. هو كذلك، لولا ما أتاه الصانع الحكيم من ناحية ضعفه.

الرسل والرسالة

الإنسان عجيب في شأنه يصعد بقوة عقله إلى أعلى مراتب

الملكوت، ويطاول بفكره أرفع معالم الجبروت، ويسامي بقوته ما يعظم أن يسامي من قوى الكون الأعظم، ثم يصغر ويتضاءل وينحط إلى أدنى درك في الاستكانة والخضوع متى عرض له أمر ما لم يعرف سببه ولم يدرك منشأه، لسر عرفه المستبصرون، واستشعرته نفوس الناس أجمعين.

من ذلك الضعف قيد إلى هداه، ومن تلك الضعة أخذ بيده إلى مشرق سعادته، أكمل الواهب الجواد لجملته ما اقتضت حكمته في تخصيص نوعه بما يميزه عن غيره أو ينقص من أفراده، وكما جاد على كل شخص بالعقل المصرف للحواس، لينظر في طلب اللقمة وستر العورة والتوقي من الحر والبرد، جاد على الجملة بما هو أمس بالحاجة في البقاء وآثر في الوقاية من غوائل الشقاء وأحفظ لنظام الاجتماع الذي هو عماد كونه بالإجماع.

من عليه بالنائب الحقيقي عن المحبة.، بل الراجع بها إلى النفوس التي أقفرت منها، لم يخالف سنته فيه من بناء كونه على قاعدة التعليم والإرشاد، غير أنه أتاه مع ذلك من أضعف الجهات فيه، وهي جهة الخضوع والاستكانة، فأقام له من بين أفراده مرشدين هادين، وميزهم من بينها بخصائص من أنفسهم، لا يشركهم فيها سواهم، وأيد ذلك، زيادة في الاقناع، بآيات باهرات تملك النفوس، وتأخذ الطرق على سوابق العقول، فيستخذى الطامح، ويذل الجامح، ويصدم بها عقل العاقل فيرجع إلى رشده، وينبهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه.

يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله، ويدهشون المدارك

ببواهر من آياته، فيحيطون العقول بما لا مندوحة عن الإذعان له، ويستوي في الركون لما يجيئون به المالك والمملوك، والسلطان والصعلوك، والعاقل والجاهل، والمفضول والفاضل فيكون الإذعان لهم أشبه بالاضطراري منه بالاختياري النظري.

يعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم، وما أراد أن يعلموه من شؤون ذاته وكمال صفاته، وأولئك هم الأنبياء المرسلون.

فبعثة الأنبياء صلوات الله عليهم من متممات كون الإنسان، ومن أهم حاجاته في بقائه، ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص، نعمة أتمها الله لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. وسنتكلم عن وظيفتهم بنوع من التفصيل فيما بعد.

* * *

إمكان الوحي

الكلام في إمكان الوحي يأتي بعد تعريفه، لتصوير المعنى الذي يراد منه، ولنعرف المعنى الحاصل بالمصدر، فيفهم معنى المصدر نفسه، ولا تعنينا ما تثيره الألفاظ في الأذهان، ولنذكر من اللغة ما يناسبه:

يقال: وحيت إليه وأوحيت، إذا كلمته بما تخفيه عن غيره، والوحي مصدر من ذلك. والمكتوب والرسالة وكل ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه، ثم غلب فيما يلقى إلى الأنبياء من قبل الله. وقيل: الوحي إعلام في خفاء، ويطلق ويراد به الوحي.

وقد عرفوه شرعاً: إنه كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه.

أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه، مع اليقين بأنه من الله بواسطة أو بغير واسطة، والأول[7] بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت.

ويفرق بينه وبين الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور[8].

أما إمكان حدوث هذا النوع من العرفان (الوحي) وانكشاف ما غاب من مصالح البشر عن عامتهم لمن يختصه الله بذلك، وسهولة فهمه عند العقل، فلا أراه مما يصعب إدراكه إلا على من لا يريد أن يدرك، ويحب أن يرغم نفسه الفهامة على ألا تفهم.

نعم.. يوجد في كل أمة، وفي كل زمان أناس يقذف بهم الطيش والنقص في العلم إلى ما وراء سواحل اليقين، فيسقطون في غمرات من الشك في كل ما لم يقع تحت حواسهم الخمس، بل قد يدركهم الريب فيما هو من متناولها، كما سبقت الإشارة، فكأنهم بسقطتهم هذه انحطوا إلى ما هو أدنى من مراتب أنواع أخرى من الحيوان، فينسون العقل وشؤونه، وسره ومكنونه، ويجدون في ذلك لذة الإطلاق عن قيود الأوامر

---

(٧) أي ما هو بواسطة.

(٨) أي إن الفرق بين الوحي والإلهام أن ملتقي الوحي يستيقن أنه من الله، وليس ذلك شرطاً في ملتقي الإلهام.

والنواهي، بل عن مجالس الحشمة التي تضمهم إلى الالتزام بما يليق، وتحجزهم عن مقارفة ما لا يليق، كما هو حال غير الإنسان من الحيوان، فإذا عرض عليهم شيء من الكلام في النبوات والأديان، وهمّ من أنفسهم هامّ بالإصغاء، دافعوا بما أوتوا من الاختيار في النظر، وانصرفوا عنه، وجعلوا أصابعهم في آذانهم حذر أن يخالط الدليل أذهانهم فيلزمهم العقيدة، وتتبعها الشريعة، فيحرموا لذة ما ذاقوا، وهو مرض في الأنفس والقلوب يستشفى منه بالعلم، إن شاء الله.

قلت: أي استحالة في الوحي؟ وأن ينكشف لفلان ما لا ينكشف لغيره، من غير فكر ولا ترتيب مقدمات، مع العلم أن ذلك من قبل واهب الفكر ومانح النظر، متى حفت العناية من ميزته هذه النعمة؟.

مما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوتة، يعلو بعضها بعضاً، وأن الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى إلا على وجه من الإجمال، وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب في التعليم فقط، بل لا بد معه من التفاوت في الفطر التي لا مدخل فيها لاختيار الإنسان وكسبه، ولا شبهة في أن من النظريات عند بعض العقلاء ما هو بديهي عند من هو أرقى منه، ولا تزال المراتب ترتقي في ذلك إلى ما لا يحصره العدد، وأن من أرباب الهمم وكبار النفوس من يرى البعيد عن صغارها قريباً فيسعى إليه، ثم يدركه، والناس دونه ينكرون بدايته، ويعجبون لنهايته، ثم يألفون ما صار إليه كأنه من المعروف الذي لا ينازع، والظاهر الذي لا يجاحد، فإذا أنكر منكر ثاروا عليه ثورتهم في باديء الأمر على

من دعاهم إليه، ولا يزال هذا الصنف من الناس على قلته ظاهراً في كل أمة إلى اليوم.

فإذا سلم ـ ولا محيص عن التسليم ـ بما أسلفنا من المقدمات، فمن ضعف العقل والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها، عند الوصول إليها، ألا يسلم بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر، بأصل الفطرة، ما تستعد به، من محض الفيض الإلهي، لأن تتصل بالأفق الأعلى، وتنتهي من الإنسانية إلى الذروة العليا، وتشهد من أمر الله شهود العيان ما لم يصل غيرها إلى تعقله أو تحسسه بعصا الدليل والبرهان، وتتلقى عن العليم الحكيم ما يعلو وضوحاً على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعاليم، ثم تصدر عن كل ذلك العلم إلى تعليم ما علمت ودعوة الناس إلى ما حملت على إبلاغه إليهم، وأن يكون ذلك سنة الله في كل أمة وفي كل زمان على حسب الحاجة.

يظهر برحمته من يختصه بعنايته، ليفي للاجتماع بما يضطر إليه من مصلحة، إلى أن يبلغ النوع الإنساني أشده، وتكون الأعلام التي نصبها لهدايته وسعادته كافية في إرشاده، فتختم الرسالة ويغلق باب النبوة، كما سنأتي عليه في رسالة نبينا ﷺ.

الملائكة

أما وجود بعض الأرواح العالية، وظهورها لأهل تلك المرتبة السامية فمما لا استحالة فيه بعدما عرفنا من أنفسنا وأرشدنا إليه العلم، قديمه وحديثه، اشتمال الوجود على ما هو ألطف من المادة، وإن غيب عنا، فأي مانع من أن يكون بعض هذا الوجود اللطيف مشرقاً لشيء من العلم الإلهي، وأن يكون لنفوس الأنبياء إشراف عليه، فإذا جاء به الخبر الصادق حملنا على الإذعان بصحته.

أما تمثل الصوت، وأشباح الأرواح في حس من اختصه الله بتلك المنزلة فقد عهد عند أعداء الأنبياء ما لا يبعد عنه في بعض المصابين بأمراض خاصة على زعمهم، فقد سلموا أن بعض معقولاتهم يتمثل في خيالهم ويصل إلى درجة المحسوس، فيصدق المريض في قوله إنه يرى ويسمع، بل يجالد ويصارع، ولا شيء من ذلك في الحقيقة بواقع، فإن جاز التمثل في الصور المعقولة، ولا منشأ لها إلا في النفس، وإن ذلك يكون عند عروض عارض على المخ، فلم لا يجوز تمثل الحقائق المعقولة في النفوس العالية؟ وأن يكون ذلك لها عندما تنتزع عن عالم الحس وتتصل بحظائر القدس؟ وتكون تلك الحال من لواحق

صحة العقل في أهل تلك الدرجة، لاختصاص مزاجهم بما لا يوجد في مزاج غيرهم.

وغاية ما يلزم عنه أن يكون لعلاقة أرواحهم بأبدانهم شأن غير معروف في تلك العلاقة من سواهم وهو مما يسهل قبوله، بل يتحتم، لأن شأنهم في الناس أيضاً غير الشؤون المألوفة، وهذه المغايرة، من أهم ما امتازوا به وقام منها الدليل على رسالتهم، والدليل على سلامة شهودهم، وصحة ما يحدثون عنه.

إن أمراض القلوب تشفى بدوائهم، وإن ضعف العزائم والعقول يتبدل بالقوة في أممهم التي تأخذ بمقالهم، ومن المنكر في البديهة أن يصدر الصحيح من معتل ويستقيم النظام بمختل.

أما أرباب النفوس العالية والعقول السامية من العرفاء، ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء، فكثير منهم نال حظه من الأنس بما يقارب تلك الحال في النوع أو الجنس، لهم مشارفة في بعض أحوالهم على شيء من عالم الغيب، ولهم مشاهد صحيحة في عالم المثال[9] لا تنكر عليهم، لتحقق حقائقها في الواقع، فهم لذلك لا يستبعدون شيئاً مما يحدّث به عن الأنبياء، صلوات الله عليهم، ومن ذاق عرف، ومن حرم انحرف.

ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه ظهور الأثر الصالح منهم،

---

(٩) اشتهر بتحديده والحديث عنه أفلاطون، وهو عنده مبدأ الوجود والمعرفة كليهما.

وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم، وطهارة فطرهم مما ينكره العقل الصحيح أو يمجه الذوق السليم، واندفاعهم بباعث من الحق الناطق في سرائرهم المتلألىء في بصائرهم إلى دعوة من يحف بهم إلى ما فيه خير العامة وترويح قلوب الخاصة، ولا يخلو العالم من متشبهين بهم، ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم، ويسوء مآلهم ومآل من غرروا به، ولا يكون لهم إلا سوء الأثر في تضليل العقول وفساد الأخلاق وانحطاط شأن القوم الذين رزئوا بهم، إلا أن يتداركهم الله بلطفه، فتكون كلمتهم الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فلم يبق بين المنكرين لأحوال الأنبياء ومشاهدهم وبين الإقرار بإمكان ما أنبئوا به بل وبوقوعه إلا حجاب من العادة، وكثيراً ما حجب العقول حتى عن إدراك أمور معتادة.

وقوع الوحي والرسالة

الدليل على رسالة نبي وصدقه فيما يحكي عن ربه، ظاهر للشاهد الذي برىء حاله، ويبصر ما آتاه الله من الآيات البينات، ويحقق بالعيان ما يغنيه عن البيان، كما سلف في الوجه الأول من الكلام على الرسالة.

أما للغائب عن زمن البعثة فدليلها التواتر، وهو كما تبين في علم آخر: رواية خبر عن شهود من جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب (عادة)، وآيته قهر النفس على اليقين بما جاء فيه، كالإخبار بوجود «مكة» أو بأن للصين عاصمة تسمى «بكين». وسبب استحالة التواطؤ على الكذب استيفاء الخبر لشرائط

معلومة[١٠]، وخلوه من عوارض تضعف الثقة به، ومرجع كل ذلك إلى العدد وبعد الراوي عن التشيع لمضمون الخبر.

لا نزاع بين العقلاء في أن هذا النوع من الأخبار يحصّل اليقين بالمخبر به، وإنما النزاع في اعتبارات تتعلق به، ومن الأنبياء ما استوفى الخبر عنهم شرائط التواتر كإبراهيم وموسى وعيسى، ومما جاء به الخبر أنهم لم يكونوا فيمن بعثوا بينهم بالأقوى سلطاناً، ولا بالأكثر مالاً، ولم يختصهم أحد بالعناية بهم لتعليمهم علم ما دعوا إليه، وغاية الأمر أنهم لم يكونوا من الأدنين الذين تعافهم النفوس، وتنبو عنهم الأنظار، ومع ذلك، واستحكام السلطان لغيرهم، ووفرة المال لديه واستعلائه عليهم بما كسب من العلم، قاموا بدعوة إلى الله على رغم الملوك وأجنادهم، وصاحوا بهم صيحة زلزلتهم في عروشهم، وادعوا أنهم يبلغون عن خالق السماوات والأرض ما أراد شرعه للناس، وأقاموا من الدليل ما تصاغرت دونه قوة المعارضة، ثم ثبتت في الكون شرائعهم ثبات الغريزة في الفطرة، وكان الخير لأممهم في اتباع ما جاءوا به.

حالفتهم القوة واحتضنتهم السعادة ما كانوا قائمين عليها، ورزأهم الضعف وغالهم الشقاء ما انحرفوا عنها، وخلّطوا فيها، فهذا وما أقاموه من الأدلة عند التحدي لا يصح معه، في العقل أن يكونوا كاذبين في حديثهم عن الله، ولا في دعواهم أنه كان يوحي إليهم ما شرعوا للناس.

---

(١٠) مثل ألا يكون الخبر ممتنعاً عقلاً، وأن يكون المخبر به محسوساً.

على أن من لا يعتقد ما يقول لا يبقى لمقاله أثر في العقول، والباطل لا بقاء له إلا في الغفلة عنه، كالنبات الخبيث في الأرض ينبت بإهمالها وينمو بإغفالها، فإذا لامستها عناية الزراع غلبه الخصب وذهب به الزكاء.

ولكن تلك الديانات التي جاء بها أولئك الأنبياء قامت في العالم الإنساني ما شاء الله مما قدر لها، مقام سائر قواه، مع كثرة المعارضين، وقوة سلطان المغالبين، فلا يمكن أن يكون أُسّها الكذب ودعامتها الحيلة، وكلامنا هذا في جوهرها الذي يلوح دائماً في خلال ما ألحق بها المبتدعون، أما بقية الرسل ممن يجب علينا الإيمان بهم فيكفي في إثبات نبوتهم إثبات رسالة نبينا ﷺ، فقد أخبرنا برسالتهم، وهو الصادق فيما بلغ به. وسنأتي على الكلام في رسالة نبينا محمد ﷺ، في باب على حدته إن شاء الله.

وظيفة الرسل عليهم السلام

تبين مما تقدم في حاجة العالم الإنساني إلى الرسل، أنهم من الأمم بمنزلة العقول من الأشخاص، وأن بعثتهم حاجة من حاجات العقول البشرية، قضت رحمة المبدع الحكيم بسدادها، ونعمة من نعم واهب الوجود ميز بها الإنسان عن بقية الكائنات من جنسه، ولكنها حاجة روحية، وكل ما لامس الحسّ منها فالقصد فيه إلى الروح، وتطهيرها من دنس الأهواء الضالة، أو تقويم ملكتها، أو إيداعها ما فيه سعادتها في الحياتين، أما تفصيل طرق المعيشة والحذق في وجه الكسب وتطاول شهوات

العقل إلى درك ما أعد للوصول إليه من أسرار العلم، فذلك مما لا دخل للرسالات فيه، إلا من وجهة العظة العامة، والإرشاد إلى الاعتدال فيه، وتقرير أن شرط ذلك كله ألا يحدث ريباً في الاعتقاد بأن للكون إلهاً واحداً قادراً عالماً حكيماً، متصفاً بما أوجب الدليل أن يتصف به، وباستواء نسبة الكائنات إليه في أنها مخلوقة له، وصنع قدرته، وإنما تفاوتها فيما اختص به بعضها من الكمال، وشرطه ألا ينال شيء من تلك الأعمال السابقة أحداً من الناس بشر في نفسه أو عرضه أو ماله بغير حق يقتضيه نظام عامة الأمة على ما حدد في شريعتها.

* * *

يرشدون العقل إلى معرفة الله، وما يعرف من صفاته، ويبينون الحد الذي يجب أن يقف عنده في طلب ذلك العرفان، على وجه لا يشق عليه الاطمئنان إليه، ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من القوة.

يجمعون كلمة الحق على إله واحد، لا فرقة معه، ويخلون السبيل بينهم وبينه وحده، وينهضون نفوسهم إلى التعلق به في جميع الأعمال والمعاملات، ويذكرونهم بعظمته بفرض ضروب من العبادات فيما اختلف من الأوقات، تذكرة لمن ينسى، وتزكية مستمرة لمن يخشى، تقوي ما ضعف منهم، وتزيد المستيقن يقيناً.

يبينون للناس ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم، وتنازعته مصالحهم ولذاتهم، فيفصلون في تلك المخاصمات بأمر الله الصادع، ويؤيدون بما يبلغون عنه ما تقوم به المصالح العامة،

ولا تفوت به المنافع الخاصة، يعودون بالناس إلى الألفة، ويكشفون لهم سر المحبة، ويستلفتونهم إلى أن فيها انتظام شمل الجماعة، ويفرضون عليهم مجاهدة أنفسهم ليستوطنوها قلوبهم، ويشعروها أفئدتهم، يعلمونهم لذلك أن يرعى كل حق الآخر وإن كان لا يغفل حقه، وألا يتجاوز في الطلب حده، وأن يعين قويهم ضعيفهم، ويمد غنيهم فقيرهم، ويهدي راشدهم ضالهم، ويعلم عالمهم جاهلهم.

يضعون لهم، بأمر الله، حدوداً عامة، يسهل عليهم أن يردوا إليها أعمالهم، كاحترام الدماء البشرية إلا بحق، مع بيان الحق الذي يبيح تناوله، واحترام الأعراض، مع بيان ما يباح وما يحرم من الأبضاع، ويشرعون لهم مع ذلك أن يقوّموا أنفسهم بالملكات الفاضلة كالصدق والأمانة، والوفاء بالعقود، والمحافظة على العهود، والرحمة بالضعفاء، والإقدام على نصيحة الأقوياء، والاعتراف لكل مخلوق بحقه بلا استثناء.

يحملونهم على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية إلى طلب الرغائب السامية، آخذين في ذلك كله بطرق من الترغيب والترهيب، والإنذار والتبشير، حسبما أمرهم الله جل شأنه.

يفصلون في جميع ذلك للناس ما يؤهلهم لرضا الله عنهم، وما يعرضهم لسخطه عليهم، ثم يحيطون بيانهم بنبأ الدار الآخرة، وما أعد الله فيها من الثواب وحسن العقبى لمن وقف عند حدوده، وأخذ بأوامره، وتجنب الوقوع في محاظيره. يعلمونهم من أنباء الغيب ما أذن الله لعباده في العلم به، مما لو صعب على العقل اكتناهه لم يشق عليه الاعتراف بوجوده.

بهذا تطمئن النفوس، وتثلج الصدور، ويعتصم المرزوء بالصبر انتظاراً لجزيل الأجر، أو إرضاء لمن بيده الأمر، وبهذا ينحل أعظم مشكل في الاجتماع الإنساني لا يزال العقلاء يجهدون أنفسهم في حله إلى اليوم.

ليس من وظائف الرسل ما هو من عمل المدرسين ومعلمي الصناعات، فليس مما جاءوا له تعليم التاريخ، ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب، ولا بيان ما اختلف من حركاتها، ولا ما استكن من طبقات الأرض، ولا مقادير الطول فيها والعرض، ولا ما تحتاج إليه النباتات في نموها، ولا ما تفتقر إليه الحيوانات في بقاء أشخاصها وأنواعها، وغير ذلك مما وضعت له العلوم، وتسابقت في الوصول إلى دقائقه الفهوم، فإن ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة، هدى الله إليه البشر بما أودع فيهم من الإدراك، يزيد في سعادة المحصلين، ويقضي فيه بالنكد على المقصرين، ولكن كانت سنة الله في ذلك أن يتبع طريقة التدرج في الكمال، وقد جاءت شرائع الأنبياء بما يحمل على الإجمال بالسعي فيه، وما يكفل التزامه بالوصول إلى ما أعد الله له الفطر الإنسانية من مراتب الارتقاء.

أما ما ورد في كلام الأنبياء من الإشارة إلى شيء مما ذكرنا في أحوال الأفلاك أو هيئة الأرض، فإنما يقصد منه النظر إلى ما فيه من الدلالة على حكمة مبدعه، أو توجيه الفكر إلى الغوص لإدراك أسراره وبدائعه، ولغتهم، عليهم الصلاة، في مخاطبة أممهم لا يجوز أن تكون فوق ما يفهمون، وإلا ضاعت الحكمة في إرسالهم، ولهذا قد يأتي التعبير الذي سيق إلى العامة بما

يحتاج إلى التأويل والتفسير عند الخاصة، وكذلك ما وجه إلى الخاصة يحتاج إلى الزمان الطويل حتى يفهمه العامة، وهذا القسم أقل ما ورد في كلامهم.

❋ ❋ ❋

على كل حال لا يجوز أن يقام الدين حاجزاً بين الأرواح وبين ما ميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الإمكان، بل يجب أن يكون الدين باعثاً لها على طلب العرفان، مطالباً لها باحترام البرهان، فارضاً عليها أن تبذل ما تستطيع من الجهد في معرفة ما بين يديها من العوالم، ولكن مع التزام القصد والوقوف في سلامة الاعتقاد عند الحد، ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين وجنى عليه جناية لا يغفرها له رب الدين.

اعتراض مشهور

قال قائل: إن كانت بعثة الرسل حاجة من حاجات البشر وكمالاً لنظام اجتماعهم، وطريقاً لسعادتهم الدنيوية والأخروية، فما بالهم لم يزالوا أشقياء، عن السعادة بعداء، يتخالفون ولا يتفقون، يتقاتلون ولا يتناصرون، يتناهبون ولا يتناصفون، كل يستعد للوثبة ولا ينتظر إلا مجيء النوبة، حشو جلودهم الظلم وملء قلوبهم الطمع، عد أهل كل ذي دين دينهم حجة لمقارعة من خالفهم فيه، واتخذوا منه سبباً جديداً للعداوة والعدوان فوق ما كان من اختلاف المصالح والمنافع، بل أهل الدين الواحد قد تنشق عصاهم، وتختلف مذاهبهم في فهمه، وتتفارق عقولهم في

عقائدهم، ويثور بينهم غبار الشر، وتتشبث أهواؤهم بالفتن، فيسفكون دماءهم ويخربون ديارهم، إلى أن يغلب قويهم ضعيفهم، فيستقر الأمر للقوة لا للحق والدين.. فها هو الدين الذي تقول إنه جامع الكلمة ورسول المحبة كان سبباً في الشقاق، ومضرماً للضغينة، فما هذه الدعوى وما هذا الأثر؟؟.

نقول في جوابه: نعم.. كل ذلك قد كان، ولكن بعد زمن الأنبياء وانقضاء عهدهم، ووقوع الدين في أيدي من لا يفهمه، أو يفهمه ويغلو فيه، ولكن لم يمتزج حبه بقلبه، أو امتزج بقلبه حب الدين ولكن ضاقت سعة عقله عن تصريفه تصريف الأنبياء أنفسهم أو الخيرة من تبعتهم، وإلا فقل لنا: أي نبي لم يأت أمته بالخير الجم والفيض الأعم؟ ولم يكن دينه وافياً بجميع ما كانت تمس إليه حاجتها في أفرادها وجملتها؟؟.

أظن أنك لا تخالفنا في أن الأعظم من الناس، بل الكل ـ إلا قليلاً ـ لا يفهمون فلسفة «أفلاطون»، ولا يقيسون أفكارهم وآراءهم بمنطق «أرسطو»، بل لو عرض أقرب المعقولات إلى العقول عليهم بأوضح عبارة يمكن أن يأتي بها معبر لما أدركوا منها إلا خيالاً لا أثر له في تقويم النفس ولا في إصلاح العمل، فاعتبر هذه الطبقات في حالها التي لا تفارقها من تلاعب الشهوات بها، ثم انصب نفسك واعظاً بينها في تخفيف بلاء ساقه النزاع إليها، فأي الطرق أقرب إليك في مهاجمة شهواتهم وردها إلى الاعتدال في رغائبها.

من البديهي أنك لا تجد الطريق الأقرب في بيان مضار الإسراف في الرَّغب وفوائد القصد في الطلب، وما ينحو نحو

ذلك، مما لا يصل إليه أرباب العقول السامية إلا بطويل النظر، وإنما تجد أقصر الطرق وأقومها أن تأتي إليه من نافذة الوجدان المطلة على سر القهر المحيط به من كل جانب، فتذكره بقدرة الله الذي وهبه ما وهب، الغالب عليه في أدنى شؤونه إليه، المحيط بما في نفسه، الآخذ بأزمة هممه، وتسوق إليه من الأمثال في ذلك ما يقرب إلى فهمه، ثم تروي له ما جاء في الدين المعتقد به من مواعظ وعبر، ومن سير السلف في ذلك الدين ما فيه أسوة حسنة، وتنعش روحه بذكر رضا الله إذا استقام، وسخطه عليه إذا تقحم، عند ذلك يخشع منه القلب، وتدمع العين، ويستخذى الغضب، وتخمد الشهوة، والسامع لم يفهم من ذلك كله إلا أنه يرضي الله وأولياءه إذا أطاع، ويسخطهم إذا عصى، ذلك هو المشهود من حال البشر، غابرهم وحاضرهم، ومنكره يَسِمُ نفسه أنه ليس منهم.

كم سمعنا أن عيوناً بكت، وزفرات صعدت، وقلوباً خشعت لواعظ الدين؟ لكن هل سمعت بمثل ذلك بين يدي نصاح الأدب وزعماء السياسة؟؟.

متى سمعنا أن طبقة من طبقات الناس يغلب الخير على أعمالهم لما فيه من المنفعة لعامتهم أو خاصتهم، وينفى الشر من بينهم لما يجلبه عليهم من مضار ومهالك؟ هذا أمر لم يعهد في سير البشر، ولا ينطبق على فطرهم، وإنما قوام الملكات هو العقائد والتقاليد، ولا قيام للأمرين إلا بالدين، فعامل لدين هو أقوى العوامل في أخلاق العامة، بل والخاصة، وسلطانه على نفوسهم أعلى من سلطان العقل الذي هو خاصة نوعهم.

سوء الاستعمال

قلنا: إن منزلة النبوات من الاجتماع هي منزلة العقل من الشخص، أو منزلة العَلَم المنصوب على الطريق المسلوك، بل نصعد إلى ما فوق ذلك ونقول: منزلة السمع والبصر.

أليس من وظيفة الباصرة التمييز بين الحسن والقبيح من المناظر؟ وبين الطريق السهلة السلوك والمعابر الوعرة؟ ومع ذلك فقد يسيء البصير استعمال بصره، فيتردى في هاوية يهلك فيها، وعيناه سليمتان تلمعان في وجهه، يقع ذلك لطيش أو إهمال أو غفلة أو لجاج.

وقد يقوم من العقل والحس ألف دليل على مضرة شيء، ويعلم ذلك الباغي في رأيه من أهل الشر، ثم يخالف تلك الأدلة الظاهرة، ويقتحم المكروه لقضاء شهوة اللجاج أو نحوها.

ولكن وقوع هذه الأمثال لا ينقص من قدر الحس أو العقل فيم خلق لأجله، كذلك الرسل، عليهم السلام، أعلام هداية نصبها الله على سبيل النجاة، فمن الناس من اهتدى بها فانتهى إلى غايات السعادة، ومنهم من غلط في فهمها أو انحرف عن هديها فانكب في مهاوي الشقاء، فالدين هاد، والنقص يعرض لمن دُعوا إلى الاهتداء به، ولا يطعن نقصهم في كماله، واشتداد حاجتهم إليه **﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين﴾**[11].

---

(11) سورة البقرة: الآية ٢٦.

ألا إن الدين مستقر السكينة، ولجأ[١٢] الطمأنينة، به يرضي كل بما قسم له، وبه يدأب عامل حتى يبلغ الغاية من عمله، وبه تخضع النفوس إلى أحكام السنن العامة في الكون، وبه ينظر الإنسان إلى من فوقه في العلم والفضيلة، وإلى من دونه في المال والجاه، اتباعاً لما وردت به الأوامر الإلهية.

الدين أشبه بالبواعث الفطرية الإلهامية منه بالدواعي الاختيارية. الدين قوة من أعظم قوى البشر، وإنما قد يعرض عليها من العلل ما يعرض لغيرها من القوى، وكل ما وجه إلى الدين من مثل الاعتراض الذي نحن بصدده فتبعته في أعناق القائمين عليه، الناصبين أنفسهم منصب الدعوة إليه، أو المعروفين بأنهم حفظته ورعاة أحكامه، وما عليهم في إبلاغ القلوب بغيتها منه إلا أن يهتدوا به ويرجعوا به إلى أصوله الطاهرة الأولى، ويضعوا عنه أوزار البدع، فترجع إليه قوته، وتظهر للأعمى حكمته.

ربما يقول قائل: إن هذه المقابلة بين العقل والدين تميل إلى رأي القائلين بإهمال العقل بالمرة في قضايا الدين، وبأن أساسه هو التسليم المحض، وقطع الطريق على أشعة البصيرة أن تنفذ إلى فهم ما أودعه من معارف وأحكام.

فنقول: لو كان الأمر كما عساه أن يقال، لما كان الدين عَلَماً يهتدي به، وإنما الذي سبق تقريره هو أن العقل وحده لا يستقل بالوصول إلى ما فيه سعادة الأمم بدون مرشد إليه، كما لا

(١٢) اللجأ مصدر معناه: الحصن والملاذ.

يستقل الحيوان في درك جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها، بل لا بد معها من السمع لإدراك المسموعات مثلاً، كذلك **الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشتبه على العقل من وسائل السعادات، والعقل هو صاحب السلطان في معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما منحت لأجله، والإذعان لما تكشف من معتقدات وحدود أعمال.** كيف ينكر على العقل حقه في ذلك، وهو الذي ينظر في أدلتها ليصل منها إلى معرفتها، وإنها آتية من قبل الله، وإنما على العقل بعد التصديق برسالة نبي أن يصدق بجميع ما جاء به، وإن لم يستطع الوصول إلى كنه بعضه، والنفوذ إلى حقيقته، ولا يقضي عليه ذلك بقبول ما هو باب المحال المؤدي إلى مثل الجمع بين النقيضين أو بين الضدين في موضوع واحد في آن واحد، فإن ذلك مما تتنزه النبوات عن أن تأتي به، فإن جاء ما يوهم ظاهره ذلك في شيء من الوارد فيها، وجب على العقل أن يعتقد أن الظاهر غير مراد، وله الخيار بعد ذلك في التأويل، مسترشداً ببقية ما جاء على لسان من ورد المتشابه في كلامه، وفي التفويض إلى الله في علمه، وفي سلفنا الناجين من أخذ بالأول ومنهم من أخذ بالثاني.

رسالة محمد ﷺ

ليس من غرضنا، في هذه الوريقات، أن نلم بتاريخ الأمم عامة، وتاريخ العرب خاصة في زمن البعثة المحمدية، لنبين كيف كانت حاجة سكان الأرض ماسة إلى قارعة تهز عروش الملوك، وتزلزل قواعد سلطانهم الغاشم، وتخفض من أبصارهم المعقودة بعنان السماء إلى من دونهم من رعاياهم الضعفاء، وإلى نار تنقض من سماء الحق على أدم[13] الأنفس البشرية، لتأكل ما اعشوشبت به من الأباطيل القاتلة للعقول، وصيحة فصحى تزعج الغافلين وترجع بألباب الذاهلين، وتنبه المرؤوسين إلى أنهم ليسوا بأبعد عن البشرية من الرؤساء الظالمين، والدهاة الضالين، والقادة الغارين، وبالجملة تؤوب بهم إلى رشد يقيم الإنسان على الطريق التي سنها الله له: ﴿إن هديناه السبيل﴾[14] ليبلغ بسلوكها كماله، ويصل على نهجها إلى ما أعد في الدارين له.

ولكننا نستعير من التاريخ كلمة يفهمها من نظر فيما اتفق عليه مؤرخو ذلك العهد نظر إمعان وإنصاف: كانت دولتا العالم، دولة الفرس في الشرق ودولة الرومان في الغرب في تنازع وتجالد مستمر، دماء بين العالمين مسفوكة، وقوى منهوكة،

---

(١٣) من معانيه السمرة والسواد.

(١٤) سورة الإنسان: الآية ٣.

وأموال هالكة، وظلم من الإحن حالكة، ومع ذلك فقد كان الزهو والترف والإسراف والفخفخة والتفنن في الملاذ بالغة حد ما لا يوصف في قصور السلاطين والأمراء، والقواد ورؤساء الأديان من كل أمة، وكان شره هذه الطبقة من الأمم لا يقف عند حد، فزادوا في الضرائب، وبالغوا في فرض الأتاوات، حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم، وأتوا على ما في أيديها من ثمرات أعمالها، وانحصر سلطان القوى في اختطاف ما بيد الضعيف، وفكر العاقل في الاحتيال لسلب الغافل، وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب ضروب من الفقر، والذل والاستكانة، والخوف والاضطراب، لفقد الأمن على الأرواح والأموال.

غمرت مشيئة الرؤساء إرادة من دونهم، فعاد هؤلاء كأشباح، اللاعب يديرها من وراء حجاب، ويظنها الناظر إليها من ذوي الألباب، ففقد بذلك الاستقلال الشخصي، وظن أفراد الرعايا أنهم لم يخلقوا إلا لخدمة ساداتهم وتوفير لذاتهم، كما هو الشأن في العجماوات مع من يقتنيها.

ضلت السادات في عقائدها وأهوائها، وغلبتها على الحق والعدل شهواتها، ولكن بقي لها من قوة الفكر أردأ بقاياها، فلم يفارقها الحذر من أن بصيص النور الإلهي، الذي يخالط الفطر الإنسانية، قد يفتق الغلف التي أحاطت بالقلوب، ويمزق الحجب التي أسدلت على العقول، فتهتدي العامة إلى السبيل، ويثور الجم الغفير على العدد القليل، ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن ينشئوا سحباً من الأوهام، ويهيئوا كسفاً من الأباطيل والخرافات، ليقذفوا بها في عقول العامة، فيغلظ الحجاب،

ويعظم الرين، ويختنق بذلك نور الفطرة، ويتم لهم ما يريدون من المغلوبين لهم.

وصرح الدين، بلسان رؤسائه، أنه عدو العقل، وعدو كل ما يثمره النظر، إلا ما كان تفسيراً لكتاب مقدس، وكان لهم في المشارب الوثنية ينابيع لا تنضب ومدد لا ينفد.

هذه حالة الأقوام كانت في معارفهم، وذلك كان شأنهم في معايشهم، عبيد أذلاء حيارى في جهالة عمياء، اللهم إلا بعض شوارد من بقايا الحكمة الماضية والشرائع السابقة أوت إلى بعض الأذهان، ومعها مقت الحاضر، ونقص العلم بالغابر، ثارت الشبهات على أصول العقائد وفروعها، بما انقلب من الوضع، وانعكس من الطبع، فكان يرى الدنس في مظنة الطهارة، والشره حيث تنتظر القناعة، والدعارة حيث ترجى السلامة، والسلام مع قصور النظر عن معرفة السبب، وانصرافه لأول وهلة إلى أن مصدر كل ذلك هو الدين، فاستولى الاضطراب على المدارك، وذهب بالناس مذهب الفوضى في العقل والشريعة معاً، وظهرت مذاهب الإباحيين والدهريين في شعوب متعددة، وكان ذلك ويلاً عليها فوق ما رزئت به من سائر الخطوب.

وكانت الأمة العربية قبائل متخالفة في النزعات، خاضعة للشهوات، فخر كل قبيلة في قتال أختها، وسفك دماء أبطالها، وسبي نسائها، وسلب أموالها، تسوقها المطامع إلى المعامع، ويزين لها السيئات فساد الاعتقادات، وقد بلغ العرب من سخافة العقل حداً صنعوا أصنامهم من الحلوى، ثم عبدوها، فلما جاعوا أكلوها!! وبلغوا من تضعضع الأخلاق وهناً قتلوا فيه

بناتهم تخلصاً من عار حياتهن، أو تنصلاً من نفقات معيشتهن، وبلغ الفحش بهم مبلغاً لم يعد معه للعفاف قيمة، وبالجملة: فكانت ربط النظام الاجتماعي قد تراخت عقدها في كل أمة، وانفصمت عراها عند كل طائفة.

أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الأقوام أن يؤدبهم برجل منهم، يوحي إليه رسالته، ويمنحه عنايته، ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم، التي أظلت رؤوس جميع الأمم؟؟.

نعم.. كان ذلك، ولله الأمر من قبل ومن بعد، في الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول، عام الفيل ـ (٢٠ إبريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام) ـ ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشيين، بمكة، ولد يتيماً، توفي والده قبل أن يولد، ولم يترك له من المال إلا خمس جمال وبعض نعاج وجارية، ويروى أقل من ذلك. وفي السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضاً، فاحتضنه جده عبد المطلب، وبعد سنتين من كفالته توفي جده، فكفله عمه أبو طالب، وكان شهماً كريماً، غير أنه من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله، وكان ﷺ من بني عمه وصبية قومه كأحدهم، على ما به من يتم فقد فيه الأبوين معاً، وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول، ولم يقم على تربيته مهذب، ولم يعن بتثقيفه مؤدب، بين أتراب من نبت الجاهلية، وعشراء من حلفاء الوثنية، وأولياء من عبدة الأوهام، وأقرباء من حفدة الأصنام، غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل، بدناً وعقلاً وفضيلة وأدباً، حتى عرف بين أهل مكة وهو في ريعان شبابه، بالأمين.

أدب إلهي لـم تجر العادة بأن تزين به نفوس الأيتام من الفقراء، خصوصاً مع فقر القوام، فاكتمل ﷺ كاملاً والقوم ناقصون، رفيعاً والناس منحطون، موحداً وهم وثنيون، سلماً وهم شاغبون، صحيح الاعتقاد وهم واهمون، مطبوعاً على الخير وهم به جاهلون، وعن سبيله عادلون.

من السنن المعروفة أن يتيماً فقيراً أمياً مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته إلى زمن كهولته، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه، لا سيما إن كان من ذوي قرابته وأهل عصبته، ولا كتاب يرشده، ولا أستاذ ينبهه، ولا عضد ذو عزم يؤيده، فلو جرى الأمر فيه على جاري السنن لنشأ على عقائدهم وأخذ بمذاهبهم إلى أن يبلغ مبلغ الرجال، ويكون للفكر والنظر مجال، فيرجع إلى مخالفتهم إذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده، ولكن الأمر لم يجر على سننه، بل بغضت إليه الوثنية من مبدأ عمره، فعاجلته طهارة العقيدة، كما بادره حسن الخليقة، وما جاء في الكتاب من قوله: **﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾**(١٥) لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد، أو على غير السبيل القويم قبل الخلق العظيم، حاش لله، إن ذلك لهو الإفك المبين، وإنما هي الحيرة تلم بقلوب أهل الإخلاص فيما يرجون للناس من الخلاص، وطلب السبيل إلى ما هدوا إليه من إنقاذ الهالكين، وإرشاد الضالين، وقد هدى الله نبيه إلى ما كانت تتلمسه بصيرته

---

(١٥) سورة الضحى: الآية ٧.

باصطفائه لرسالته واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته.

* * *

ووجد شيئاً من المال يسد حاجته ـ (وقد كان له في الاستزادة منه ما يرفه معيشته) ـ بما عمل لخديجة، رضي الله عنها، في تجارتها، وبما اختارته بعد ذلك زوجها، وكان فيما يجتنيه من ثمرة عمله غناء له وعون على بلوغه ما كان عليه أعاظم قومه، لكنه لم ترقه الدنيا، ولم تغره زخارفها، ولم يسلك ما كان يسلكه مثله في الوصول إلى ما ترغبه الأنفس من نعيمها، بل كلما تقدم به السن زادت فيه الرغبة عما كان عليه الكافة، ونما فيه حب الانفراد والانقطاع إلى الفكر، والمراقبة والتحنث[١٦] بمناجاة الله تعالى، والتوسل إليه في طلب المخرج من همه الأعظم في تخليص قومه، ونجاة العالم من الشر الذي تولاه، إلى أن انفتق له الحجاب عن عالم كان يحثه إليه الإلهام الإلهي، وتجلى عليه النور القدس، وهبط عليه الوحي من المقام العلي، في تفصيل ليس هذا موضعه.

لم يكن من آبائه ملك فيطالب بما سلب من ملكه، وكانت نفوس قومه في انصراف تام عن طلب مناصب السلطان، وفي قناعة بما وجده من شرف النسبة إلى المكان، دل عليهما ما فعل جده عبد المطلب عند زحف «أبرهة» الحبشي[١] على ديارهم،

---

(١٦) أي التعبد بمناجاة الله.

(١٧) الملقب بالأشرم، حكم اليمن العربية لحساب ملك الحبشة، وكان في الأصل عبداً لرجل روماني، واستقل باليمن عن الحبشة فترة من الزمن، وكان مسيحياً، بدأ حكمه لهذه البلاد سنة ٥٣١ م. انظر دائرة المعارف الإسلامية.

جاء الحبشي لينتقم من العرب بهدم معبدهم العام، وبيتهم الحرام، ومنتجع حجيجهم، ومستوى العلية من آلهتهم، ومنتهى حجة القرشيين في مفاخرتهم لبني قومهم، وتقدم بعض جنده فاستاق عدداً من الإبل فيها لعبد المطلب مائتا بعير، وخرج عبد المطلب في بعض قريش لمقابلة الملك، فاستدناه وسأله حاجته فقال: هي أن ترد إلي مائتي بعير أصبتها، فلامه الملك على المطلب الحقير وقت الخطب الخطير، فأجابه: أنا رب الإبل أما البيت فله رب يحميه.

هذا غاية ما ينتهي إليه الاستسلام، وعبد المطلب في مكانه من الرياسة على قريش، فأين من تلك المكانة محمد ﷺ، في حاله من الفقر، ومقامه في الوسط من طبقات أهله، حتى ينتجع ملكاً أو يطلب سلطاناً؟؟.. لا مال، لا جاه، لا جند، لا أعوان، لا سليقة في الشعر، لا براعة في الكتاب، لا شهرة في الخطاب، لا شيء كان عنده مما يكسب المكانة في نفوس العامة، أو يرقى به إلى مقام ما بين الخاصة

ما هذا الذي رفع نفسه فوق النفوس؟ ما الذي أعلى رأسه على الرؤوس؟ ما الذي سما بهمته على الهمم حتى انتدب نفسه لإرشاد الأمم، وكفالته لهم كشف الغمم، بل وإحياء الرمم؟؟.

ما كان ذلك إلا ما ألقى الله في روعه من حاجة العالم إلى مقوم لما زاغ من عقائدهم، ومصلح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم ما كان ذلك إلا وجدانه ريح العناية الإلهية، ينصره في عمله ويمده في الانتهاء إلى أمله قبل بلوغ أجله. ما هو إلا الوحي الإلهي يسعى نوره بين يديه، يضيء له السبيل، ويكفيه

مؤنة الدليل، ما هو إلا الوعد السماوي قام لديه مقام القائد والجندي.

أرأيت كيف نهض وحيداً فريداً يدعو الناس كافة إلى التوحيد والاعتقاد بالعلي المجيد، والكل ما بين وثنية متفرقة ودهرية وزندقة؟.. نادى في الوثنيين بترك أوثانهم، ونبذ معبوداتهم، وفي المشبهين المنغمسين في الخلط بين اللاهوت الأقدس وبين الجسمانيات بالتطهر من تشبيههم، وفي التنويه بإفراد إله واحد بالتصرف في الأكوان، ورد كل شيء في الوجود إليه، أهاب بالطبيعيين ليمدوا ببصائرهم إلى ما وراء حجاب الطبيعة فيتنوروا سر الوجود الذي قامت به. صاح بذوي الزعامة ليهبطوا إلى مصاف العامة في الاستكانة إلى سلطان معبود واحد هو فاطر السموات والأرض، والقابض على أرواحهم في هياكل أجسادهم، تناول المنتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربهم الأعلى، فبين لهم بالدليل وكشف لهم بنور الوحي أن نسبة أكبرهم إلى الله كنسبة أصغر المعتقدين به، وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لأنفسهم من المكانات الربانية إلى أدنى سلم من العبودية، والاشتراك مع كل ذي نفس إنسانية في الاستعانة برب واحد، يستوي جميع الخلق في النسبة إليه، لا يتفاوتون إلا فيما فضل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة. وخز بوعظه عبيد العادات وأسراء التقليد ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له، ويحلوا أغلالهم التي أخذت بأيديهم عن العمل، وقطعتهم دون الأمل. مال على قراء الكتب السماوية والقائمين على ما أودعته من الشرائع الإلهية، فبكّت الواقفين عند حروفها بغباوتهم، وشدد

النكير على المحرفين لها، الصارفين لألفاظها إلى غير ما قصد من وحيها، اتباعاً لشهواتهم، ودعاهم إلى فهمها، والتحقق بسر علمها حتى يكونوا على نور من ربهم. واستلفت كل إنسان إلى ما أودع فيه من المواهب الإلهية، ودعا الناس أجمعين ذكوراً وإناثاً، عامة وسادات، إلى عرفان أنفسهم، وإنهم من نوع خصه الله بالعقل، وميزه بالفكر، وشرفه بهما وبحرية الإرادة فيما يرشده إليه عقله وفكره، وإن الله عرض عليهم جميع ما بين أيديهم من الأكوان، وسلطهم على فهمها، والانتفاع بها بدون شرط ولا قيد إلا الاعتدال، والوقوف عند حدود الشريعة العادلة والفضيلة الكاملة، وأقدرهم بذلك على أن يصلوا إلى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم بدون واسطة أحد إلا من خصهم الله بوحيه، وقد وكل إليهم معرفتهم بالدليل، كما كان الشأن في معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع. والحاجة إلى أولئك المصطفين إنما هي في معرفة الصفات التي أذن الله أن تُعلم منه، وليست في الاعتقاد بوجوده، وقرر أن لا سلطان لأحد من البشر على آخر منه إلا ما رسمته الشريعة وفرضه العدل، ثم الإنسان بعد ذلك يذهب بإرادته إلى ما سخرت له بمقتضى الفطرة.

دعا الإنسان إلى معرفة أنه جسم وروح، وأنه بذلك من عالمين مختلفين، وإن كانا ممتزجين، وأنه مطالب بخدمتهما جميعاً وإيفاء كل منهما ما قررت له الحكمة الإلهية من الحق، دعا الناس كافة إلى الاستعداد في هذه الحياة لما سيلاقون في الحياة الأخرى، وبين لهم أن خير زاد يتزوده العامل هو الإخلاص لله في العبادة والإخلاص للعباد في العدل والنصيحة والإرشاد.

قام بهذه الدعوة العظمى وحده، ولا حول له ولا قوة، كل هذا كان منه والناس أحياء ما ألفوا، وإن كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة، أعداء ما جهلوا، وإن كان رغد العيش وعزة السيادة ومنتهى السعادة، كل هذا والقوم حواليه أعداء أنفسهم، وعبيد شهوتهم، لا يفقهون دعوته ولا يعقلون رسالته، عقدت أهداب بصائر العامة منهم بأهواء الخاصة، وحجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر في دعوى فقير أمي مثله، لا يرون فيه ما يرفعه إلى نصيحتهم، والتطاول إلى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف.

لكنه في فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة، ويناضلهم بالدليل، ويأخذهم بالنصيحة، ويزعجهم بالزجر، وينبههم للعبر، ويحوطهم، مع ذلك، بالموعظة الحسنة، كأنما هو سلطان قاهر في حكمه، عادل في أمره ونهيه، أو أب حكيم في تربية أبنائه، شديد الحرص على مصالحهم، رؤوف بهم في شدته، رحيم في سلطته.

ما هذه القوة في ذلك الضعف؟؟ ما هذا السلطان في مظنة العجز! ما هذا العلم في تلك الأمية؟! ما هذا الرشاد في غمرات الجاهلية؟! . إن هو إلا خطاب الجبروت الأعلى، قارعة القدرة العظمى، نداء العناية العليا ذلك خطاب الله القادر على كل شيء، الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً، ذلك أمر الله الصادع، يقرع الآذان، ويشق الحجب، ويمزق الغلف[١٨]، وينفذ إلى

---

(١٨) مفردها غلاف.

القلوب على لسان من اختاره لينطق به، واختصه بذلك، وهو أضعف قومه، ليقيم من هذا الاختصاص برهاناً عليه، بعيداً عن الظنة، بريئاً من التهمة! لإتيانه على غير المعتاد بين خلقه.

أي برهان على النبوة أعظم من هذا!؟ . . أمي قام بدعوة الكاتبين إلى فهم ما يكتبون وما يقرؤون؟! بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء، ليمحصوا ما كانوا يعلمون؟! في ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء؟! ناشىء بين الواهمين هب لتقويم عوج الحكماء؟؟ غريب في أقرب الشعوب إلى سذاجة الطبيعة وأبعدها عن فهم نظام الخليقة والنظر في سننه البديعة، أخذ يقرر للعالم أجمع أصول الشريعة، ويخط للسعادة طرقاً لن يهلك سالكها ولن يخلص تاركها؟!.

ما هذا الخطاب المفحم؟ ما ذلك الدليل الملجم؟ . . أأقول ما هذا بشراً، إن هذا إلا ملك كريم؟! لا، لا أقول، ولكن أقول كما أمره الله أن يصف نفسه: إن هو إلا بشر مثلكم يوحى إليه. نبي صدّق الأنبياء، ولكن لم يأت في الإقناع برسالته بما يلهي الأبصار، أو يحير الحواس، أو يدهش المشاعر، ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له، واختص العقل بالخطاب، وحاكم إليه الخطأ والصواب، وجعل في قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة وآية الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

القــرآن

جاءنا الخبر المتواتر الذي لا تتطرق إليه الريبة، أن النبي ﷺ، كان في نشأته وأميته على الحال التي ذكرنا، وتواترت أخبار الأمم كافة على أنه جاء بكتاب قال إنه أنزل عليه، وإن ذلك الكتاب هو القرآن المكتوب في المصاحف، المحفوظ في صدور من عني بحفظه من المسلمين إلى اليوم. كتاب حوى من أخبار الأمم الماضية ما فيه معتبر للأجيال الحاضرة والمستقبلة، نقب على الصحيح منها، وغادر الأباطيل التي ألحقتها الأوهام بها، ونبه على وجوه العبرة فيها. حكي عن الأنبياء ما شاء الله أن يقص علينا من سيرهم، وما كان بينهم وبين أممهم، وبرأهم مما رماهم به أهل دينهم، المعتقدون برسالتهم، آخذ العلماء من الملل المختلفة على ما أفسدوا من عقائدهم، وما خلطوا في أحكامهم، وما حرفوا بالتأويل، في كتبهم. وشرع للناس أحكاماً تنطبق على مصالحهم، وظهرت الفائدة في العمل بها والمحافظة عليها، وقام بها العدل، وانتظم بها شمل الجماعة ما كانت عند حد ما قرره، ثم عظمت المضرة في إهمالها والانحراف عنها أو البعد بها عن الروح الذي أودعته، ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعية، كما يتبين للناظر في شرائع الأمم، ثم جاء بعد ذلك

بحكم ومواعظ وآداب تخشع لها القلوب، وتهش لاستقبالها العقول، وتنصرف وراءها الهمم انصرافها في السبيل الأمم[1].

نزل القرآن في عصر اتفق الرواة وتواترت الإخبار على أنه أرقى الأعصار عند العرب، وأغزرها مادة في الفصاحة، وأنه الممتاز بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة وفرسان الخطاب، وأنْفَسُ ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل، ونتائج الفطنة والذكاء، هو الغلب في القول، والسبق إلى إصابة مكان الوجدان من القلوب ومقر الإذعان من العقول، وتفانيهم في المفاخرة بذلك لا يحتاج إلى الإطالة في بيانه.

تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبي ﷺ، والتماسهم الوسائل، قريبها وبعيدها، لإبطال دعواه، وتكذيبه في الإخبار عن الله، وإتيانهم في ذلك على مبلغ استطاعتهم، وكان فيهم الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معاندته، والأمراء الذين يدعوهم السلطان إلى مناوأته، والخطباء والشعراء والكتاب الذين يشمخون بأنوفهم عن متابعته، وقد اشتد جميع أولئك في مقاومته، وانهالوا بقواهم عليه، استكباراً عن الخضوع له، وتمسكاً بما كانوا عليه من الأديان آبائهم، وحمية لعقائدهم وعقائد أسلافهم، وهو مع ذلك يخطّىء آراءهم، ويسفه أحلامهم، ويحتقر أصنامهم، ويدعوهم إلى ما لم تعهده أيامهم، ولم تخفق لمثله أعلامهم، ولا حجة له بين يدي ذلك كله إلا تحديهم بالإتيان بمثل أقصر سورة من ذلك الكتاب، أو بعشر

---

(١) السبيل الأمم: الطريق الواضح.

سور من مثله. وكان في استطاعتهم أن يجمعوا إليه من العلماء والفصحاء البلغاء ما شاءوا، ليأتوا بشيء من مثل ما أتى به، ليبطلوا الحجة، ويفحموا صاحب الدعوة.

جاءنا الخبر المتواتر أنه مع طول زمن التحدي، ولجاج القوم في التعدي أصيبوا بالعجز، ورجعوا بالخيبة، وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام، وقضى حكمه العلي على جميع الأحكام. أليس في ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمي أعظم معجزة وأدل برهان على أنه ليس من صنع البشر؟ وإنما هو النور المنبعث عن شمس العلم الإلهي، والحكم الصادر عن المقام الرباني على لسان الرسول الأمي، صلوات الله عليه.

هذا وقد جاء في الكتاب من أخبار الغيب ما صدقته حوادث الكون، كالخبر في قوله: **﴿غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين﴾**[(١)]، وكالوعد الصريح في قوله: **﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾**[(٢)] الآية، وقد تحقق جميع ذلك، وفي القرآن كثير من مثل هذا يحيط به من يتلوه حق تلاوته.

ومن الكلام عن الغيب فيه ما جاء في تحدي العرب به، واكتفائه في الرجوع عن دعواه بأن يأتوا بسورة من مثله، مع سعة

---

(١) سورة الروم: الآية ٢ ـ ٤.

(٢) سورة النور: الآية ٥٥.

البلاد العربية، ووفرة سكانها، وتباعد أطرافها، وانتشار دعوته على لسان الوافدين إلى مكة من جميع أرجائها، ومع أنه لم يسبق له ﷺ، السياحة في نواحيها والتعرف برجالها، وقصور العلم البشري، عادة، عن الإحاطة بما أودع في قوى أمة عظيمة كالأمة العربية، فهذا القضاء الحاتم منه بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشيء من مثل ما تحداهم به ليس قضاء بشرياً، ومن الصعب، بل من المتعذر، أن يصدر عن عاقل التزام كالذي التزمه، وشرط كالذي شرطه على نفسه، لغلبة الظن عند من له شيء من العقل أن الأرض لا تخلو من صاحب قوة مثل قوته، وإنما ذلك هو الله المتكلم والعليم الخبير هو الناطق على لسانه، وقد أحاط علمه بقصور جميع القوى عن تناول ما استنهضهم له وبلوغ ما حثهم عليه.

يقول واهم: إن العجز حجة على من عجز، فإن العجز هو حجة الإفحام وإلزام الخصم، وقد يلتزم الخصم ببعض المسلمات عنده فيفحم ويعجز عن الجواب فتلزمه الحجة، ولكن ليس ذلك بملزم لغيره، فمن الممكن ألا يسلّم غيره بما سلمه، فلا يفحمه الدليل، بل يجد إلى إبطاله أقرب سبيل.

وهو وهم يضمحل بما قدمناه من البيان، إذ لا يوجد من المشابهة بين إعجاز القرآن وإفحام الدليل إلا أنه يوجد عند كل منهما عجز، وشتان بين العجزين، وبعد ما بين وجهتي الاستدلال فيهما، فإن إعجاز القرآن برهن على أمر واقعي، وهو تقاصر القوى البشرية دون مكانته من البلاغة، وقلنا: القوى البشرية، لأنه جاء بلسان عربي، وقد عرف الكتاب عند جميع

العرب في عهد النبوة، وكان حال العصر من البلاغة كما ذكرنا، وحال القوم في العناد كما بينا، ومع ذلك لم يكن للعرب أن يعارضوه بشيء من مبلغ عقولهم، فلا يعقل أن فارسياً أو هندياً أو رومانياً يبلغ من قوة البلاغة في العربية أن يأتي بما عجز عنه العرب أنفسهم، وتقاصر القوى عن ذلك، مع التماثل بين النبي وبينهم في النشأة والتربية، وامتياز الكثير منهم بالعلم والدراسة دليل قاطع على أن الكلام ليس مما اعتيد صدوره عن البشر، فهو اختصاص من الله سبحانه لمن جاء على لسانه.

ثم ما ورد في القرآن من تسجيل العجز عليهم، والتعرض للاصطدام بجميع ما أوتوا من قوة، مما يدل على الثقة من أمره، مع ما سبق تعداده من الأمور التي لا يمكن معها لعاقل أن يقف ذلك الموقف مع طول الزمن وانفساح الأجل، كل ذلك يدل على أن الناطق هو عالم الغيب والشهادة، لا رجل يعظ وينصح على العادة.

فثبت بهذه المعجزة العظمى وقام الدليل بهذا الكتاب الباقي الذي لا يعرض عليه التغيير ولا يتناوله التبديل أن نبينا محمداً ﷺ، رسول الله إلى خلقه، فيجب التصديق برسالته والاعتقاد بجميع ما ورد في الكتاب المنزل عليه، والأخذ بكل ما ثبت عنه من هدى وسنة متبعة، وقد جاء في الكتاب أنه خاتم الأنبياء، فوجب علينا الإيمان بذلك كذلك.

الدين الإسلامي

أو الإسلام(*)

بقي علينا أن نشير إلى وظيفة الدين الإسلامي، وما دعا إليه، على وجه الإجمال، وكيف انتشرت دعوته بالسرعة المعروفة، والسر في كون النبي ﷺ خاتم المرسلين، صلوات الله عليه وعليهم أجمعين.

هو الدين الذي جاء به محمد ﷺ، وعقله من وعاه عنه من صحابته ومن عاصرهم، وجرى العمل عليه حيناً من الزمن بينهم بلا خوف ولا اعتساف في التأويل، ولا ميل مع الشيع، وأتى مجمله في هذا الباب مقتدياً بالكتاب المجيد في التفويض لذوي البصائر أن يفصلوه. وما سندي فيما أقول إلا الكتاب، والسنة القويمة، وهدى الراشدين.

(*) من هنا حتى ما قبل موضوع (التصديق بما جاء به محمد ﷺ) من رسالة التوحيد هذه، نشر أيضاً في كتاب (الإسلام والرد على منتقديه) ص ٩١ ـ ١١٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م. ولقد راجعنا النسختين وقومنا منهما النص.

التوحيد

جاء الدين الإسلامي بتوحيد الله تعالى في ذاته وأفعاله، وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين، فأقام الأدلة على أن للكون خالقاً واحداً متصفاً بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلية كالعلم، والقدرة، والإرادة، وغيرها، وعلى أنه لا يشبهه شيء من خلقه، وأن لا نسبة بينه وبينهم إلا أنه موجدهم، وإنهم له وإليه راجعون:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[1].

وما ورد من ألفاظ الوجه واليدين والاستواء ونحوها، له معان عرفها العرب المخاطبون بالكتاب، ولم يشتبهوا في شيء منها، وإن ذاته وصفاته يستحيل عليها أن تبرز في جسد أو روح أحد من العالمين، وإنما يختص سبحانه من شاء من عباده بما شاء من علم وسلطان على ما يريد أن يسلطه عليه من الأعمال، على سنة له في ذلك سنها في علمه الأزلي، الذي لا يعتريه التبديل ولا يدنو منه التغيير، وحظر على كل ذي عقل أن يعترف

---

(١) سورة الإخلاص: الآية ١ ـ ٤.

لأحد بشيء من ذلك إلا ببرهان ينتهي في مقدماته إلى حكم الحس وما جاوره من البديهيات التي لا تنقص عنه في الوضوح، بل قد تعلوه، كاستحالة الجمع بين النقيضين أو ارتفاعهما معاً، أو وجوب أن الكل أعظم من الجزء مثلاً، وقضى على هؤلاء كغيرهم، بأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، وغاية أمرهم أنهم عباد مكرمون، وأن ما يجريه على أيديهم فإنما هو بإذن خاص، وبتيسير خاص، في موضع خاص، لحكمة خاصة، ولا يعرف شأن الله في شيء من هذا إلا ببرهان، كما تقدم.

دل هذا الدين بمثل قول الكتاب: **﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾**[٢]، والشكر عند العرب معروف أنه: تصريف النعمة فيما كان الإنعام بها لأجله، دل بمثل هذا على أن الله وهبنا من الحواس، وغرز فينا من القوى ما نصرفه في وجهه، بمحض تلك الموهبة، فكل شخص كاسب لعمله بنفسه لها أو عليها. وأما ما تتحير فيه مداركنا، وتقصر دونه قوانا، وتشعر فيه أنفسنا بسلطان يقهرها، أو ناصر يمدها فيما أدركها العجز عنه، على أنه فوق ما تعرف من القوى المسخرة لها، وكان لا بد من الخضوع له، والرجوع إليه، والاستعانة به، فذلك إنما يرد إلى الله وحده، فلا يجوز أن تخشع إلا له ولا أن تطمئن إلا إليه، وكذلك جعل شأنها فيما تخافه وترجوه مما تقبل عليه في الحياة الآخرة، لا يسوغ لها أن تلجأ إلى أحد غير الله في قبول أعمالها

---

(٢) سورة النحل: الآية ٧٨.

من الطيبات، ولا في غفران أفاعيلها من السيئات، فهو وحده مالك يوم الدين.

اجتثت بذلك جذور الوثنية وما وليها مما لو اختلف عنها في الصورة والشكل أو العبارة واللفظ، لم يختلف عنها في المعنى والحقيقة، تبع هذا طهارة العقول من الأوهام الفاسدة التي لا تنفك عن تلك العقيدة الباطلة، ثم تنزه النفوس عن الملكات السيئة التي كانت تلازم تلك الأوهام، وتخلصت بتلك الطهارة من الاختلاف في المعبودين وعليهم، وارتفع شأن الإنسان وسمت قيمته بما صار إليه من الكرامة بحيث أصبح لا يخضع لأحد إلا لخالق السموات والأرض وقاهر الناس أجمعين، وأبيح لكل أحد، بل فرض عليه أن يقول كما قال إبراهيم: **﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾**[(٣)]، وكما أمر رسول الله ﷺ، أن يقول: **﴿إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾**[(٤)]، تجلت بذلك للإنسان نفسه حرة كريمة، وأطلقت إرادته من القيود التي كانت تقعدها بإرادة غيره، سواء كانت إرادة بشرية ظن أنها شعبة من الإرادة الإلهية، أو أنها هي، كإرادة الرؤساء المسيطرين، أو إرادة موهومة اخترعها الخيال، كما يظن في القبور والأحجار والأشجار والكواكب ونحوها، وافتكت عزيمته من أسر الوسائط والشفعاء، والمتكهنة والعرفاء، وزعماء السيطرة على الأسرار،

---

(٣) سورة الأنعام: الآية ٧٩.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٦٢.

ومنتحلي حق الولاية على أعمال العبد بينه وبين الله، الزاعمين أنهم واسطة النجاة، وبأيديهم الإشقاء والإسعاد. وبالجملة، فقد أعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين، وصار الإنسان، بالتوحيد، عبداً لله، حراً من العبودية لكل ما سواه، فكان له من الحق ما للحر على الحر، لا عَلِيّ في الحق ولا وضيع، ولا سافل ولا رفيع، ولا تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم، ولا تفاضل إلا بتفاضلهم في عقولهم ومعارفهم، ولا يقربهم من الله إلا طهارة العقل من دنس الوهم وخلوص العمل من العوج والرياء، ثم بهذا خلصت أموال الكاسبين وتمخض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة وكفت عنها أيدي العالة وأهل البطالة ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته لا بعمله وخدمته.

* * *

مكانة العمل

طالب الإسلام بالعمل كل قادر عليه، وقرر أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت **﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾**[5]، **﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾**[6]، وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ما شاء أكلاً وشرباً ولباساً وزينة، ولم يحظر عليه إلا ما كان ضاراً بنفسه، أو

---

(٥) سورة الزلزلة: الآيتان ٧، ٨.

(٦) سورة النجم: الآية ٢٩.

بمن يدخل في ولايته، أو ما تعدى ضرره إلى غيره، وحدد له في ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة، فكفل الاستقلال لكل شخص في عمله، واتسع المجال لتسابق الهمم في السعي حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها، إلا حقاً محترماً تصطدم به.

* * *

حرية الفكر . . والتجديد

أنحى الإسلام على التقليد، وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر، فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس، واقتلعت أصوله الراسخة في المدارك، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان في عقائد الأمم. صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها، كلما نفذ إليه شعاع من نور الحق خلصت إليه هينمة[7] من سدنة هياكل الوهم: «نم فإن الليل حالك، والطريق وعرة، والغاية بعيدة، والراحلة كليلة، والأزواد قليلة»!!.

علا صوت الإسلام على وساوس الطغام، وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام، ولكنه فطر على أن يهتدي بالعلم والأعلام، أعلام الكون ودلائل الحوادث، وإنما المعلمون منبهون ومرشدون، وإلى طرق البحث هادون، صرح في وصف أهل الحق بأنهم: ﴿**الذين يستمعون القول فيتبعون**

---

(٧) الهينمة: الصوت الخفي.

أحسنه﴾[8]، فوصفهم بالتمييز بين ما يقال، من غير فرق بين القائلين، ليأخذو بما عرفوا حسنه، ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه، ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون، ووضعهم تحت أنظار مرؤوسيهم، يخبرونهم كما يشاءون، ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون، ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون. صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء، وما توارثه عنهم الأبناء، وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين، ونبه على أن السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان، ولا مسمياً لعقول على عقول، ولا لأذهان على أذهان، وإنما السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيان، بل للاحق من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل إليه من آثارها في الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه، وقد يكون من تلك الآثار التي ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم، وطغيان الشر الذي وصل إليهم بما اقترفه سلفهم: **﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾**[9]، وأن أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب، ورحمته التي وسعت كل شيء لن تضيق عن دائب عاب أرباب الأديان في اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عند ما اختطته سير أسلافهم، وقولهم: **﴿بل نتبع ما**

(٨) سورة الزمر: الآية ١٨.

(٩) سورة الأنعام: الآية ١١.

وجدنا عليه آباءنا﴾[١٠]، ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون﴾[١١].

فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده، وخلصه من كل تقليد كان استعبده، ورده إلى مملكته يقضي بحكمه وحكمته، مع الخضوع مع ذلك لله وحده، والوقوف عند شريعته، ولا حد للعمل في منطقة حدودها، ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها.

بهذا وما سبقه تم للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما وهما: استقلال الإرادة، واستقلال الرأي والفكر، وبهما كملت له إنسانيته، واستعد لأن يبلغ من السعادة ما هيأه الله له بحكم الفطرة التي فطر عليها، وقد قال بعض حكماء الغربيين، من متأخريهم: إن نشأة المدنية في أوروبا إنما قامت على هذين الأصلين، فلم تنهض النفوس للعمل ولم تتحرك العقول للبحث والنظر إلا بعد أن عرف العدد الكثير أنفسهم، وأن لهم حقاً في تصريف اختيارهم، وفي طلب الحقائق بعقولهم، ولم يصل إليهم هذا النوع من العرفان إلا في الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح، وقرر ذلك الحكيم: أنه شعاع سطع عليهم من آداب الإسلام ومعارف المحققين من أهله في تلك الأزمان[١٢].

---

(١٠) سورة لقمان: الآية ٢١.

(١١) سورة الزخرف: الآية ٢٢.

(١٢) الإشارة هنا إلى أثر التعاليم الإسلامية التي اقتبسها الغرب من الأندلس وبواسطة الاختلاط زمن الحروب الصليبية.. الخ في حركة الإصلاح الديني في أوروبا.

رفع الإسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتدينين في فهم الكتب السماوية، استئثاراً من أولئك الرؤساء بحق الفهم لأنفسهم، وضناً به على كل من لم يلبس لباسهم، ولم يسلك مسلكهم لنيل تلك الرتبة المقدسة، ففرضوا على العامة أو أباحوا لهم أن يقرءوا قطعاً من تلك الكتب، لكن على شريطة ألا يفهموها ولا أن يطيلوا أنظارهم إلى ما ترمي إليه، ثم غالوا في ذلك فحرموا أنفسهم أيضاً مزية الفهم إلا قليلاً، ورموا عقولهم بالقصور عن إدراك ما جاء في الشرائع والنبوات، ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الألفاظ تعبد بالأصوات والحروف فذهبوا بحكمة الإرسال، فجاء القرآن يلبسهم عار ما فعلوا، فقال: **﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون﴾**(١٣)، **﴿مثل الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، والله لا يهدي القوم الظالمين﴾**(١٤). أما الأماني ففسرت بالقراءات والتلاوات، أي لا يعلمون منه إلا أن يتلوه، وإذا ظنوا أنهم على شيء مما دعا إليه فهو عن غير علم بما أُودعه، وبلا برهان على ما تخيلوه عقيدة وظنوه ديناً، وإذا عنَّ لأحدهم أن يبين شيئاً من أحكامه ومقاصده، لشهوة دفعته إلى ذلك، جاء فيما يقول بما ليس منه على بينة، واعتسف

= وسيأتي لنا تعليق خاص بهذا الأمر في الفصل الخاص بانتشار الإسلام من رسالة التوحيد هذه.

(١٣) سورة البقرة: الآية ٧٨.

(١٤) سورة الجمعة: الآية ٥.

في التأويل، وقال: هذا من عند الله **﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً﴾**(١٥)، أما الذين قال: إنهم لم يحملوا التوراة، وهي بين أيديهم بعد ما حُمّلوها، فهم الذين لم يعرفوا منها إلا الألفاظ، ولم تسم عقولهم إلى درك ما أودعته من الشرائع والأحكام، فعميت عليهم بذلك طرق الاهتداء بها، وطمست عن أعينهم أعلام الهداية التي نصبت بإنزالها، فحق عليهم ذلك المثل الذي أظهر شأنهم فيما لا يليق بنفس بشرية أن تظهر به، مثل الحمار الذي يحمل الكتب ولا يستفيد من حملها إلا العناء والتعب وقصم الظهور وانبهار النَّفَس، وما أشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال، فما كان سبباً في إسعادهم، وهو التنزيل والشريعة، أصبح سبباً في شقائهم بالجهل والغباوة.. وبهذا التقريع ونحوه، وبالدعوة العامة إلى الفهم وتمحيص الألباب للتفقه واليقين، مما هو منتشر في القرآن العزيز، فرض الإسلام على كل ذي دين أن يأخذ بحظه من علم ما أودع الله في كتبه، وما قرر من شرعه، وجعل الناس في ذلك سواء بعد استيفاء الشرط بإعداد لا بد منه للفهم، وهو سهل المنال على الجمهور الأعظم من المتدينين، لا تختص به طبقة من الطبقات ولا يحتكر مزيته وقت من الأوقات.

* * *

(١٥) سورة البقرة: الآية ٧٩.

اتفاق الأديان على التوحيد

جاء الإسلام والناس شيع في الدين، وإن كانوا، إلا قليلاً، في جانب عن اليقين، يتنابذون ويتلاعنون، ويزعمون في ذلك أنهم بحبل الله مستمسكون، فرقة وتخالف وشغب يظنونها في سبيل الله أقوى سبب، أنكر الإسلام ذلك كله، وصرح تصريحاً لا يحتمل الريبة بأن دين الله في جميع الأزمان وعلى ألسن جميع الأنبياء واحد، قال الله:

﴿إِنَّ الدِّينَ عندَ الله الإسلامُ وما اختلَفَ الذِينَ أُتُوا الكِتابَ إلاَّ من بَعْدِ مَا جَاءَهمْ العِلمُ بَغْيَا بَيْنَهمْ﴾[16]، **﴿مَا كانَ إِبراهيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرانِيّا وَلكِن كانَ حَنيفاً مُسْلِماً وَمَا كانَ من المُشرِكينَ﴾**[17]، **﴿شَرَعَ لَكُمْ من الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً، والذي أَوحَيْنَا إِلَيْك وَمَا وَصيْنا به إِبرَاهيمَ وَمُوسَى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفرقوا فِيهِ، كَبُرَ على المُشرِكِين مَا تدعُوهُمْ إِلَيهِ﴾**[18]، **﴿قُلْ يا أهْلَ الكِتاب تَعَالَوا إلى كلمةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَينكُمْ ألاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ الله وَلاَ نُشرِكَ بِهِ شَيئاً وَلا يَتخِذَ بَعْضنا بَعْضاً أَرباباً مَنْ دون الله فإِنْ تَوَلَّوْا فقُولُوا اشهَدُوا بأَنَّا مُسْلمونَ﴾**[19]، وكثير من ذلك يطول إيراده في هذه الوريقات.

والآيات الكريمة التي تعيب على أهل الدين ما نزعوا إليه من الاختلاف والمشاقة، مع ظهور الحجة، واستقامة المحجة

---

(١٦) سورة آل عمران: الآية ١٩.

(١٧) سورة آل عمران: الآية ٦٧.

(١٨) سورة الشورى: الآية ١٣.

(١٩) سورة آل عمران: الآية ٦٤.

لهم في علم ما اختلفوا فيه معروفة لكل من قرأ القرآن وتلاه حق تلاوته. نص الكتاب على أن دين الله في جميع الأزمان هو إفراده بالربوبية، والاستسلام له وحده بالعبودية، وطاعته فيما أمر به، ونهى عنه، مما هو مصلحة البشر، وعماد لسعادتهم في الدنيا والآخرة، وقد ضمنه كتبه التي أنزلها على المصطفين من رسله، ودعا العقول إلى فهمه منها، والعزائم إلى العمل به، وأن هذا المعنى من الدين هو الأصل الذي يرجع إليه عند هبوب ريح التخالف، وهو الميزان الذي توزن به الأقوال عند التناصف، وإن اللجاج والمراء في الجدل فراق مع الدين، وبعد عن سننه، ومتى روعيت حكمته ولوحظ جانب العناية الإلهية في الإنعام على البشرية، ذهب الخلاف وتراجعت القلوب إلى هداها، وسار الكافة في مراشدهم إخواناً، بالحق مستمسكين، وعلى نصرته متعاونين.

* * *

اختلاف الأديان في العبادات

أما صور العبادات، وضروب الاحتفالات، مما اختلفت فيه الأديان الصحيحة سابقها مع لاحقها، واختلاف الأحكام متقدمها مع متأخرها، فمصدره رحمة الله ورأفته في إيتاء كل أمة وكل زمان ما علم فيه الخير للأمة والملاءمة للزمان، وكما جرت سنته - وهو رب العالمين - بالتدريج في تربية الأشخاص من خارج من بطن أمه لا يعلم شيئاً، إلى راشد في عقله، كامل في نشأته، يمزق الحجب بفكره، ويواصل أسرار الكون بنظره، كذلك لم

تختلف سنته ولم يضطرب هديه في تربية الأمم، فلم يكن من شأن الإنسان، في جملته ونوعه، أن يكون في مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من يوم خلقه الله إلى يوم يبلغ من الكمال منتهاه، بل سبق القضاء بأن يكون شأن جملته في النمو قائماً على ما قررته الفطرة الإلهية في شأن إفراده، وهذا من البديهيات التي لا يصح الاختلاف فيها، وإن اختلف أهل النظر في بيان ما تفرع في علوم وضعت للبحث في الاجتماع البشري خاصة، فلا نطيل الكلام فيه هنا.

* * *

تطور الأديان

جاءت الأديان والناس من فهم مصالحهم العامة، بل والخاصة، في طور أشبه بطور الطفولية للناشىء الحديث العهد بالوجود، لا يألف منه إلا ما وقع تحت حسه، ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمسه، وأن يتأول بذهنه من المعاني ما لا يقرب من لمسه، ولم ينفث في روعه من الوجدان الباطن ما يعطفه على غيره من عشيره أو ابن جنسه، فهو من الحرص على ما يقيم بناء شخصه في هم شاغل عما يلقى إليه فيما يصله بغيره، اللهم إلا يداً تصل إلى فمه بطعام أو تسنده في قعود أو قيام.

فلم يكن من حكمة تلك الأديان أن تخاطب الناس بما يلطف في الوجدان، أو يرقى إليه بسلم البرهان، بل كان من عظيم الرحمة أن تسير بالأقوام ـ وهم عيال الله ـ سير الوالد مع

ولده في سذاجة السن، لا يأتيه إلا من قبل ما يحسه بسمعه أو ببصره، فأخذتهم بالأوامر الصادعة، والزواجر الرادعة، وطالبتهم بالطاعة، وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة[٢٠]. كلفتهم بمعقول المعنى، جلي الغاية، وإن لم يفهموا معناه، ولم تصل مداركهم إلى مرماه، وجاءتهم من الآيات بما تطرف له عيونهم، وتنفعل به مشاعرهم، وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه.

ثم مضت على ذلك أزمان، علت فيها الأقوام وسقطت، وارتفعت وانحطت، وجربت وكسبت، وتخالفت واتفقت، وذاقت من الأيام آلاماً، وتقلبت في السعادة والشقاء أياماً وأياماً، ووجدت الأنفس بنفث[٢١] الحوادث ولقن[٢٢] الكوارث شعوراً أدق من الحس، وأدخل في الوجدان، لا يرتفع في الجملة عما تشعر به قلوب النساء، أو تذهب معه نزعات الغلمان، فجاء دين يخاطب العواطف، ويناجي المراحم، ويستعطف الأهواء، ويحادث خطرات القلوب، فشرع للناس من شرائع الزهادة ما يصرفهم عن الدنيا بجملتها، ويوجه وجوههم نحو الملكوت الأعلى، ويقتضي من صاحب الحق ألا يطالب به ولو بحق، ويغلق أبواب السماء في وجوه الأغنياء، وما ينحو نحو ذلك مما هو معروف[٢٣]، وسن للناس سنناً في عبادة الله تتفق مع ما كانوا

---

(٢٠) الإشارة هنا إلى الديانة الموسوية.

(٢١) إلقاء الحوادث وإلهامها.

(٢٢) لقن الكوارث: كلامها المباشر ودلالاتها.

(٢٣) الإشارة هنا إلى المسيحية.

عليه، وما دعاهم إليه، فلاقى من تعلق النفوس بدعوته ما أصلح من فاسدها، وداوى من أمراضها، ثم لم يمض عليه بضعة أجيال حتى ضعفت العزائم البشرية عن احتماله، وضاقت الذرائع عن الوقوف عند حدوده والأخذ بأقواله، ووفر في الظنون أن اتباع وصاياه ضرب من المحال، فهب القائمون عليه أنفسهم لمنافسة الملوك في السلطان، ومزاحمة أهل الترف في جمع الأموال، وانحرف الجمهور الأعظم منهم عن جادته بالتأويل، وأضافوا عليه ما شاء الهوى من الأباطيل.

هذا كان شأنهم في السجايا والأعمال، نسوا طهارته، وباعوا نزاهته. أما في العقائد فتفرقوا شيعاً، وأحدثوا بدعاً، ولم يستمسكوا من أصوله إلا بما ظنوه من أشد أركانها، وتوهموه من أقوى دعائمها، وهو حرمان العقول من النظر فيه، بل وفي غيره من دقائق الأكوان، والحظر على الأفكار أن تنفذ إلى شيء من سرائر الخلقة، فصرحوا بأن لا وفاق بين الدين والعقل، وأن الدين من أشد أعداء العلم، ولم يكف الذاهب إلى ذلك أن يأخذ به نفسه، بل جد في حمل الناس على مذهبه بكل ما يملك من حول وقوة، وأفضى الغلو في ذلك بالأنفس إلى نزعة كانت أشأم النزعات على العالم الإنساني، وهي نزعة الحرب بين أهل الدين للإلزام ببعض قضايا الدين، فتقوض الأصل وتخرمت العلائق بين الأهل، وحلت القطيعة محل التراحم، والتخاصم مكان التعاون، والحرب محل السلام، وكان الناس على ذلك إلى أن جاء الإسلام.

* * *

الإسلام

كان سن الاجتماع البشري قد بلغ بالإنسان أشده، وأعدته الحوادث الماضية إلى رشده، فجاء الإسلام يخاطب العقل ويستصرخ الفهم واللب، ويشركه مع العواطف والإحساس في إرشاد الإنسان إلى سعادته الدنيوية والأخروية، وبين للناس ما اختلفوا فيه، وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه، وبرهن على أن دين الله في جميع الأجيال واحد، ومشيئته في إصلاح شؤونهم وتطهير قلوبهم واحدة، وأن رسم العبادة على الأشباح إنما هو لتجديد الذكرى في الأرواح، وأن الله لا ينظر إلى الصور ولكن ينظر إلى القلوب، وطالب المكلف برعاية جسده كما طالبه بإصلاح سره، ففرض نظافة الظاهر كما أوجب طهارة الباطن، وعد كلا الأمرين طهراً مطلوباً، وجعل روح العبادة الإخلاص، وأن ما فرض من الأعمال إنما هو لما أوجب من التطبع بصالح الملكات ﴿**إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**﴾[٢٤]، ﴿**إن الإنسان خلق هلوعاً، إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً، إلا المصلين**﴾[٢٥]، ورفع الغني الشاكر إلى مرتبة الفقير الصابر، بل ربما فضله عليه، وعامل الإنسان في مواعظه معاملة الناصح الهادي للرجل الرشيد، فدعاه إلى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة، وصرح بما لا يقبل التأويل أن في ذلك رضا الله وشكر نعمته، وأن الدنيا مزرعة الآخرة، ولا وصول إلى خير العقبى إلا بالسعي في صلاح الدنيا.

---

(٢٤) سورة العنكبوت: الآية ٤٥.

(٢٥) سورة المعارج: الآية ١٩.

التفت إلى أهل العناد فقال لهم: ﴿**قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**﴾[٢٦]. وعنف النازعين إلى الخلاف والشقاق على ما زعزعوا من أصول اليقين، ونص على أن التفرق بغي وخروج عن سبيل الحق المبين، ولم يقف في ذلك، عند حد الموعظة بالكلام والنصيحة بالبيان، بل شرع شريعة الوفاق، وقررها في العمل، فأباح للمسلم أن يتزوج من أهل الكتاب، وسوغ مؤاكلتهم، وأوصى أن تكون مجادلتهم بالتي هي أحسن، ومن المعلوم أن المحاسنة هي رسول المحبة، وعقد الألفة، والمصاهرة إنما تكون بعد التحاب بين أهل الزوجين، والارتباط بينهما بروابط الائتلاف.

ثم أخذ العهد على المسلمين أن يدافعوا عمن يدخل في ذمتهم من غيرهم كما يدافعون عن أنفسهم، ونص على أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا، ولم يفرض عليهم جزاء ذلك إلا زهيداً يقدمونه من مالهم، ونهى بعد ذلك عن كل إكراه في الدين، وطيب قلوب المؤمنين في قوله ﴿**يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم**﴾[٢٧]، فعليهم الدعوة إلى الخير بالتي هي أحسن، وليس لهم ولا عليهم أن يستعملوا أي ضرب من ضروب القوة في الحمل على الإسلام، فإن نوره جدير أن يخترق القلوب، وليست الآيات في الأمر بالمعروف بين المسلمين، فإنه لا اهتداء إلا بعد القيام به، ولو أريد ذلك لكان التعبير: «على كل واحد منكم بنفسه» لا (عليكم أنفسكم)،

---

(٢٦) سورة البقرة: الآية ١١١.

(٢٧) سورة المائدة: الآية ١٠٥.

كما هو ظاهر لكل عربي، كل ذلك ليرشد الناس إلى أن الله لم يشرع لهم الدين ليتفرقوا فيه، ولكن ليهديهم إلى الخير في جميع نواحيه.

رفع الإسلام كل امتياز بين الأجناس البشرية، وقرر لكل فطرة شرف النسبة إلى الله في الخلقة، وشرف اندراجها في النوع الإنساني بالجنس[٢٨] والفصل[٢٩] والخاصة[٣٠]، وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذي أعده الله لنوعها، على خلاف ما زعمه المنتحلون من الاختصاص بمزايا حرم منها غيرهم، وتسجيل الخسة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم، فأماتوا الأرواح في معظم الأمم وصيروا أكثر الشعوب هياكل وأشباحاً.

هذه عبادات الإسلام، على ما في الكتاب وصحيح السنة، تتفق على ما يليق بجلال الله، وسمو وجوده عن الأشياء، وتلتئم مع المعروف عند العقول السليمة..

فالصلاة: ركوع وسجود، وحركة وسكون، ودعاء وتضرع،

---

(٢٨) الجنس، في المنطق، هو كل مقول على كثيرين مختلفين بالحقيقة في جواب ما هو؟. انظر (المعجم الفلسفي).

(٢٩) الفصل، في المنطق، هو جملة الموضوعات التي تربط بينها صفات مشتركة، ويطلق على جزء من الماهية يميز النوع، كالناطق بالنسبة للإنسان، وإذا ميز النوع عن مشاركيه في الجنس البعيد سمي «بالفصل البعيد». انظر المرجع السابق.

(٣٠) هي الكلي الدال على نوع واحد في جواب أي شيء هو؟، لا بالذات، بل بالعرض.. وتطلق على ما ليس داخلاً في الماهية ولكنه يميز الشيء، كما تطلق على ما هو ملازم للشيء على الدوام، ألخ، انظر المرجع السابق.

وتسبيح وتعظيم، وكلها تصدر عن ذلك الشعور بالسلطان الإلهي الذي يغمر القوة البشرية، ويستغرق الحول، فتخشع له القلوب، وتستخذي له النفوس، وليس فيها شيء يعلو على متناول العقل إلا نحو تحديد عدد الركعات، أو رمي الجمرات[٣١]، على أنه مما يسهل التسليم فيه لحكمة العليم الخبير، وليس فيه من ظاهر العبث واستحالة المعنى ما يخل بالأصول التي وضعها الله للعقل في الفهم والتفكير.

أما الصوم: فحرمان يعظم به أمر الله في النفس، وتعرف به مقادير النعم عند فقدها، ومكانة الإحسان الإلهي في التفضل بها **﴿كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾**[٣٢].

أما أعمال الحج: فتذكير للإنسان بأوليات حاجاته، وتعهد له بتمثيل المساواة بين أفراده، ولو في العمر مرة، يرتفع فيها الامتياز بين الغني والفقير، والصعلوك والأمير، ويظهر الجميع في معرض واحد عراة الأبدان، متجردين عن آثار الصنعة، وحدت بينهم العبودية لله رب العالمين، كل ذلك مع استبقائهم في الطواف والسعي والمواقف ولمس الحجر ذكرى إبراهيم عليه السلام، وهو أبو الدين، وهو الذي سماهم المسلمين، واستقرار يقينهم على أن لا شيء من تلك البقايا الشريفة يضر أو ينفع، وشعار هذا الإذعان الكريم في كل عمل: «الله أكبر».

---

(٣١) في مناسك الحج.

(٣٢) سورة البقرة: الآية ١٨٣.

أين هذا كله مما تجد في عبادات أقوام آخرين؟ يضل فيها العقل، ويتعذر معها خلوص السر للتنزيه والتوحيد؟!.

كشف الإسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير: «العالم» والكون الصغير: «الإنسان»، فقرر أن آيات الله الكبرى في صنع العالم إنما يجري أمرها على السنن الإلهية التي قدرها الله في علمه الأزلي، لا يغيرها شيء من الطوارىء الجزئية، غير أنه لا يجوز أن يغفل شأن الله فيها، بل ينبغي أن يحيي ذكره عند رؤيتها، فقد جاء على لسان النبي ﷺ: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله». وفيه التصريح بأن جميع آيات الكون تجري على نظام واحد، لا يقضي فيه إلا العناية الأزلية على السنن التي أقامته عليها.

ثم أماط اللثام عن حال الإنسان في النعم التي يتمتع بها الأشخاص أو الأمم، والمصائب التي يرزءون بها، ففصل بين الأمرين فصلاً لا مجال معه للخلط بينهما، فأما النعم التي يمتع الله بها بعض الأشخاص في هذه الحياة، والرزايا التي يرزأ بها في نفسه فكثير منها ـ كالثروة والجاه والقوة والبنين أو الفقر والضعف والفقد ـ قد لا يكون كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص في سيرته من استقامة وعوج، أو طاعة وعصيان، وكثيراً ما أمهل الله بعض الطغاة، أو الفجرة الفسقة، وترك لهم متاع الحياة الدنيا، وكثيراً ما امتحن الله الصالحين من عباده، وأثنى عليهم في الاستسلام لحكمه، وهم الذين إذا أصابتهم مصيبة عبروا عن إخلاصهم في التسليم بقولهم: ﴿**إنا لله وإنا إليه**

راجعون﴾؟[٣٣]، فلا غضب زيد ولا رضا عمرو، ولا إخلاص سريرة ولا فساد عمل مما يكون له دخل في هذه الرزايا ولا في تلك النعم الخاصة، اللهم إلا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب على جاري العادة، كارتباط الفقر بالإسراف، والذل بالجبن، وضياع السلطان بالظلم وكارتباط الثروة بحسن التدبير في الأغلب، والمكانة عند الناس بالسعي في مصالحهم على الأكثر، وما يشبه ذلك مما هو مبين في علم آخر.

أما شأن الأمم فليس على ذلك، فإن الروح الذي أودعه الله جميع شرائعه الإلهية، من تصحيح الفكر، وتسديد النظر، وتأديب الأهواء، وتحديد مطامح الشهوات، والدخول إلى كل أمر من بابه، وطلب كل رغيبة من أسبابها، وحفظ الأمانة، واستشعار الأخوة، والتعاون على البر، والتناصح في الخير والشر، وغير ذلك من أصول الفضائل، ذلك الروح هو مصدر حياة الأمم ومشرق سعادتها في هذه الدنيا قبل الآخرة: **﴿ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها﴾**[٣٤]، ولن يسلب الله عنها نعمته ما دام هذا الروح فيها، يزيد الله النعم بقوته، وينقصها بضعفه، حتى إذا فارقها ذهبت السعادة على أثره، وتبعته الراحة إلى مقره، واستبدل الله عزة القوم بالذل، وكثرهم بالقل، ونعيمهم بالشقاء، وراحتهم بالعناء، وسلط عليهم الظالمين، أو العادلين فأخذهم بهم وهم في غفلة ساهون: **﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا**

(٣٣) سورة البقرة: الآية ١٥٦.

(٣٤) سورة آل عمران: الآية ١٤٥.

مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾[٣٥]. أمرناهم بالحق ففسقوا عنه إلى الباطل، لا ينفعهم الأنين ولا يجديهم البكاء، ولا يفيدهم ما بقي من صور الأعمال، ولا يستجاب منهم الدعاء، ولا كاشف لما نزل بهم إلا أن يلجئوا إلى ذلك الروح الأكرم فيستنزلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر والصبر والشكر **﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾**[٣٦]، **﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾**[٣٧]. وما أجل ما قاله العباس بن عبد المطلب في استسقائه: «اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يرفع إلا بتوبة».

على هذه السنن جرى سلف الأمة، فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية، ويأخذ نفسه بما يتبعها من الأعمال الجليلة، كان غيره يظن أنه يزلزل الأرض بدعائه، ويشق الفلك ببكائه، وهو ولع بأهوائه، ماضٍ في غلوائه، وما كان يغني عنه ظنه من الحق شيئاً.

التعليم

حث القرآن على التعليم، وإرشاد العامة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال: **﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم**

(٣٥) سورة الإسراء: الآية ١٦.

(٣٦) سورة الرعد: الآية ١١.

(٣٧) سورة الأحزاب: الآية ٦٢.

يحذرون﴾[38]، ثم فرض ذلك في قوله: **﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون، ولا تكونوا كالذين تفرقول واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون، تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين، ولله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور﴾**[39]، ثم بعد هذا الوعيد الذي يزعج المفرطين، وتحق به كلمة العذاب على المختلفين والمقصرين، أبرز حال الأمارين بالمعروف النهائين عن المنكر في أجل مظهر يمكن أن تظهر فيه حال أمة، فقال: **﴿كنتم خير أمة خرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾**[40]، فقدم ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان، في هذه الآية، مع أن الإيمان هو الأصل الذي تقوم عليه أعمال البر، والدوحة التي تتفرع عنها أفنان الخير، تشريفاً لتلك الفريضة، وإعلاء لمنزلتها بين الفرائض، بل تنبيهاً على أنها حفاظ الإيمان وملاك أمره، ثم شد بالإنكار على قوم أغفلوها، وأهل دين أهملوها، فقال **﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا**

---

(٣٨) سورة التوبة: الآية ١٢٢.

(٣٩) سورة آل عمران: الآية ١٠٤ ـ ١٠٩.

(٤٠) سورة آل عمران: الآية ١١٠.

يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾[٤١] فقذف عليهم اللعنة، وهي أشد ما عنون الله به على مقته وغضبه.

الزكاة

فرض الإسلام للفقراء في أموال الأغنياء حقاً معلوماً يفيض به الآخرون على الأولين، سداً لحاجة المعدم، وتفريجاً لكربة الغارم، وتحريراً لرقاب المستعبدين، وتيسيراً لأبناء السبيل، ولم يحث على شيء حثه على الإنفاق من الأموال في سبيل الخير، وكثيراً ما جعله عنوان الإيمان ودليل الاهتداء إلى الصراط المستقيم، فاستل بذلك ضغائن أهل الفاقة، ومحص[٤٢] صدورهم من الأحقاد على من فضلهم الله عليهم في الرزق، وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء، وساق الرحمة في نفوس هؤلاء على أولئك البائسين، فاستقرت بذلك الطمأنينة في نفوس الناس أجمعين، وأي دواء لأمراض الاجتماع أنجع من هذا؟ **﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾**[٤٣].

* * *

أغلق الإسلام بابي الشر، وسد ينبوعي فساد العقل والمال بتحريمه الخمر والمقامرة والربا تحريماً باتاً لا هوادة فيه.

---

(٤١) سورة المائدة: الآية ٧٨.

(٤٢) أي خلصها.

(٤٣) سورة الحديد: الآية ٢١.

لم يدع الإسلام، بعد ما قررنا، أصلاً من أصول الفضائل إلا أتى عليه، ولا أما من أمهات الصالحات إلا أحياها، ولا قاعدة من قواعد النظام إلا قررها، فاستجمع للإنسان عند بلوغ رشده ـ كما ذكرنا ـ حرية الفكر، واستقلال العقل في النظر وما به صلاح السجايا وما فيه إنهاض العزائم إلى العمل وسوقها في سبيل السعي. ومن يتلو القرآن حق تلاوته يجد فيه من ذلك كنزاً لا ينفد وذخيرة لا تفنى.

هل بعد الرشد وصاية؟ وبعد اكتمال العقل ولاية؟؟..

كلا.. قد تبين الرشد من الغي، ولم يبق إلا اتباع الهدى، والانتفاع بما ساقته أيدي الرحمة لبلوغ الغاية من السعادتين، لهذا ختمت النبوات بنبوة محمد ﷺ، وانتهت الرسالات برسالته، كما صرح بذلك الكتاب، وأيدته السنة الصحيحة، وبرهنت عليه خيبة مدعيها من بعده[٤٤]، واطمئنان العالم بما وصل إليه من العلم إلى أن لا سبيل بعد لقبول دعوة يزعم القائم بها أنه يحدث عن الله بشرع، أو يصدع عن وحيه بأمر، هكذا يصدق نبأ الغيب: **﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً﴾**[٤٥].

---

(٤٤) الإشارة إلى المتنبئين بعد الرسول ﷺ، وأشهرهم مسيلمة الكذاب.

(٤٥) سورة الأحزاب: الآية ٤٠.

انتشار الإسلام

بسرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ

كانت حاجة الأمم إلى الإصلاح عامة، فجعل الله رسالة خاتم النبيين عامة كذلك، لكن يندهش عقل الناظر في أحوال البشر عندما يرى أن هذا الدين يجمع إليه الأمة العربية من أدناها إلى أقصاها في أقل من ثلاثين سنة، ثم يتناول من بقية الأمم ما بين المحيط الغربي وجدار الصين في أقل من قرن واحد، وهو أمر لم يعهد في تاريخ الأديان، ولذلك ضل الكثير في بيان السبب، واهتدى إليه المنصفون فبطل العجب.

ابتدأ هذا الدين بالدعوة، كغيره من الأديان، ولقي من أعداء أنفسهم أشد ما يلقي حق من باطل أوذي الداعي، ﷺ، بضروب الإيذاء، وأقيم في وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب، لولا عناية الله، وعُذب المستجيبون له، وحُرموا الرزق، وطُردوا من الدار، وسُفكت منهم دماء غزيرة، غير أن تلك الدماء كانت عيون العزائم تتفجر من صخور الصبر ويثبت الله بمشهدها المستيقنين، ويقذف بها الرعب في أنفس المرتابين، فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب وهي ذوب ما فسد من طباعهم فتجري من مناحرهم جري الدم الفاسد من المفصود على أيدي الأطباء

الحاذقين ﴿لِيميزَ اللّهُ الخَبيثَ مِنَ الطيّبِ ويَجعلَ الخَبيثَ بعضَهُ عَلَى بَعضٍ فيركمهُ جَميعاً فيجعلهُ في جَهَنَّم أُولئكَ هُمُ الخاسِرُونَ﴾[٤٦].

تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الإسلام، ليحصدوا نبته، ويخنقوا دعوته، فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للأقوياء، والفقير للأغنياء، ولا ناصر له إلا أنه الحق بين الأباطيل، والرشد في ظلمات الأضاليل، حتى ظفر بالعزة، وتعزز بالمنعة. وقد وطىء أرض الجزيرة أقوام من أديان أخر، كانت تدعو إليها، وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان، وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع من المكاره، ومع ذلك لم يبلغ بهم السعي نجاحاً، ولا أنالهم القهر فلاحاً.

ضم الإسلام سكان القفار العربية إلى وحدة لم يعرفها تاريخهم، ولم يعهد لها نظير في ماضيهم، وكان النبي ﷺ، قد أبلغ رسالته، بأمر ربه، إلى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان، فهزؤوا وامتنعوا، وناصبوه وقومه الشر، وأخافوا السابلة، وضيقوا على المتاجر.، فبعث إليهم البعوث في حياته، وجرى على سنته الأئمة من صحابته، طلباً للأمن وإبلاغاً للدعوة، فاندفعوا في ضعفهم وفقرهم يحملون الحق على أيديهم، وانهالوا به على تلك الأمم في قوتها ومنعتها، وكثرة عددها، واستكمال أهبها وعددها، فظفروا منها بما هو معلوم.

---

(٤٦) سورة الأنفال: الآية ٣٧.

وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها، واستقر السلطان للفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين، وأباحوا لهم البقاء على أديانهم، وإقامة شعائرها آمنين مطمئنين، ونشروا حمايتهم عليهم، ويمنعونهم ما يمنعون منه أهلهم وأموالهم، وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزءاً قليلاً من مكاسبهم على شرائط معينة.

كانت الملوك من غير المسلمين إذا فتحوا مملكة أتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة إلى دينها يلجون على الناس بيوتهم ويغشون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر، وبرهانهم الغلبة، وحجتهم القوة، ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين، ولم يعهد في تاريخ فتوح الإسلام أن كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة، يأخذون على أنفسهم العمل في نشره، ويقفون مسعاهم على بث عقائده بين غير المسلمين، بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم، ومحاسنتهم المعاملة، وشهد العالم بأسره أن الإسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلاً وإحساناً عندما كان يعدها الأوروبيون ضعة وضعفاً.

رفع الإسلام ما ثقل من الأتاوات[٤٧]، ورد الأموال المسلوبة إلى أربابها، وانتزع الحقوق من مغتصبيها، ووضع المساواة في الحق عند التقاضي بين المسلم وغير المسلم. بلغ

---

(٤٧) عند فتح العرب لمصر كان الفلاح المصري يدفع للدولة البيزنطية أكثر من ثلاث عشرة ضريبة، اختصرها العرب إلى ضريبتين اثنتين، معلومتي المقدار وميعاد السداد، متناسبتين مع الوضع الاقتصادي الذي يعيش فيه. انظر دراستنا عن (أرض مصر فلاحها من الفتح العربي إلى الإقطاع الحربي) بكتابنا (نظرة جديدة إلى التراث) طبعة بيروت سنة ١٩٧٤ م.

أمر المسلمين فيما بعد ألا يقبل إسلام من داخل فيه إلا بين يدي قاض شرعي بإقرار من المسلم الجديد أنه أسلم بلا إكراه ولا رغبة في دنيا، وصل الأمر في عهد بعض الخلفاء الأمويين أن كره عمالهم دخول الناس في دين الإسلام لما رأوا أنه ينقص من مبالغ الجزية، وكان في حال أولئك العمال صد عن سبيل الدين لا محالة[٤٨]. عرف خلفاء المسلمين وملوكهم، في كل زمن، ما لبعض أهل الكتاب، بل وغيرهم من المهارة في كثير من الأعمال، فاستخدموهم وصعدوا بهم إلى أعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش في اسبانيا. اشتهرت حرية الأديان في بلاد الإسلام حتى هجر اليهود أوروبا فراراً منها بدينهم إلى بلاد الأندلس وغيرها.

هذا ما كان من أمر المسلمين في معاملتهم لمن أظلوهم بسيوفهم، لم يفعلوا شيئاً سوى أنهم حملوا إلى أولئك الأقوام كتاب الله وشريعته، وألقوا بذلك بين أيديهم، وتركوا الخيار لهم في القبول وعدمه، ولم يقوموا بينهم بدعوة، ولم يستعملوا لإكراههم عليه شيئاً من القوة، وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه، فما الذي أقبل بأهل الأديان المختلفة على الإسلام، وأقنعهم أنه الحق، دون ما كان لديهم، حتى دخلوا فيه أفواجاً، وبذلوا في خدمته ما لم يبذل له العرب أنفسهم؟؟.

---

(٤٨) انظر: فان فلوتن (السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية) ص ٥٢ وما بعدها. ترجمة د. حسن إبراهيم حسن، محمد زكي إبراهيم. الطبعة الثانية، القاهرة سنة ١٩٦٥ م.

ظهور الإسلام، على ما كان في جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية، وتغلبه على ما كان فيها من رذائل الأخلاق وقبائح الأعمال وسيره بسكانها على الجادة القويمة، حقق لقراء الكتب الإلهية السابقة أن ذلك هو وعد الله لنبيه إبراهيم وإسماعيل، وإن هذا الدين هو ما كانت تبشر به الأنبياء أقوامها من بعدهما، فلم يجد أهل النصفة منهم سبيلاً إلى البقاء على العناد في مجاحدته، فتلقوه شاكرين، وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين.

أوقع ذلك من الريب في قلوب مقلديهم ما حركهم إلى النظر فيه، فوجدوا لطفاً ورحمة، وخيراً ونعمة، لا عقيدة ينفر منها العقل، وهو رائد الإيمان الصادق، ولا عمل تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية، وهي القاضية في قبول المصالح والمرافق. رأوا أن الإسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت يكاد يعلو بها عن العالم السفلي، ويلحقها بالملكوت الأعلى، ويدعوها إلى إحياء ذلك الشعور بخمس صلوات في اليوم، وهو مع ذلك لا يمنع من التمتع بالطيبات، ولا يفرض من الرياضيات وضروب الزهادة ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه، ويعد برضا الله ونيل ثوابه حتى في توفية البدن حقه، متى حسنت النية وخلصت السريرة فإذا نزت شهوة أو غلب هوى كان الغفران الإلهي ينتظره متى حسنت التوبة وكملت الأوبة، تبدت لهم سذاجة الدين عندما قرءوا القرآن، ونظروا في سيرة الظاهرين من حامليه إليهم، وظهر لهم الفرق بين ما لا سبيل إلى فهمه، وما تكفي جولة نظر في الوصول إلى علمه، فترامو إليه خفافاً من ثقل ما كانوا عليه. كانت الأمم

تطلب عقلاً في دين، فوافاها، وتتطلع إلى عدل في إيمان، فأتاها، فما الذي يحجم بها عن المسارعة في طلبتها والمبادرة إلى رغبتها؟؟. كانت الشعوب تئن من ضروب الامتياز التي رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق، وكان من حكمها ألا يقام وزن لشؤون الأدنين متى عرضت دونها شهوات الأعلين، فجاء دين يحدد الحقوق ويسوي بين جميع الطبقات في احترام النفس والدين والعرض والمال، ويسوغ لامرأة فقيرة غير مسلمة أن تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لأمير عظيم مطلق السلطان في قطر كبير، وما كان يريده لنفسه، ولكن ليوسع به مسجداً، فلما عقد العزيمة على دفع أضعاف قيمته رفعت الشكوى إلى الخليفة فورد أمره برد بيتها إليها مع لوم الأمير على ما كان منه[٤٩]!! عدل يسمح ليهودي أن يخاصم مثل علي بن أبي طالب أمام القاضي، وهو من نعلم من هو، ويستوقفه للتقاضي، إلى أن قضي الحق بينهما. هذا وما سبق بيانه مما جاء به الإسلام هو الذي حببه إلى من كانوا أعداءه، ورد إليه أهواءهم حتى صاروا أنصاره وأولياءه.

غلب على المسلمين في كل زمن روح الإسلام، فكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم، ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم إلا بعد أن يحرجهم الجار، فهم كانوا يتعلمونها ممن سواهم، ثم لا يكون إلا طائفاً يحل ثم يرتحل، فإذا نقطعت أسباب الشغب تراجعت القلوب إلى سابق ما ألفته من اللين والمياسرة.

---

(٤٩) الأمير هو عمرو بن العاص، والي مصر، والمرأة قبطية مسيحية.

ومع ذلك - بل وغفلة المسلمين عن الإسلام، وخذلانهم له، وسعى الكثير منهم في هدمه بعلم وبغير علم - لم يقف الإسلام في انتشاره عند حد، خصوصاً في الصين وفي إفريقيا، ولم يخل زمن من رؤية جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع إلى الأخذ بعقائده، على بصيرة فيما تنزع إليه، لا سيف وراءها، ولا داعي أمامها، وإنما هو مجرد الاطلاع على ما أُودعه، مع قليل من حركة الفكر في العلم بما شرعه.

ومن هذا تعلم أن سرعة الدين الإسلامي، وإقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة، إنما كان لسهولة تعقله، ويسر أحكامه، وعدالة شريعته، وبالجملة، لأن فطر البشر تطلب ديناً، وترتاد منه ما هو أمس بمصالحها، وأقرب إلى قلوبها ومشاعرها، وادعى إلى الطمأنينة في الدنيا والآخرة، ودين هذا شأنه يجد إلى القلوب منفذاً، وإلى العقول مخلصاً، بدون حاجة إلى دعاة ينفقون الأموال الكثيرة والأوقات الطويلة ويستكثرون من الوسائل ونصب الحبائل لإسقاط النفوس فيه. هذا كان حال الإسلام في سذاجته الأولى وطهارته التي أنشأه الله عليها، ولا يزال على جانب عظيم منها في بعض أطراف الأرض إلى اليوم.

* * *

قال من لم يفهم ما قدمناه، ولم يرد أن يفهمه: إن الإسلام لم يطف على قلوب العالم بهذه السرعة إلا بالسيف، فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن بإحدى اليدين والسيف بالأخرى، يعرضون القرآن على المغلوب، فإن لم يقبله فصل السيف بينه

وبين حياته، سبحانك هذا بهتان عظيم!!. ما قدمناه من معاملة المسلمين مع من دخلوا تحت سلطانهم هو ما تواترت به الأخبار تواتراً صحيحاً، لا يقبل الريبة في جملته، وإن وقع اختلاف في تفصيله، وإنما شهر المسلمون سيوفهم دفاعاً عن أنفسهم وكفاً للعدوان عنهم، ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك، ولم يكن من المسلمين مع غيرهم إلا أنهم جاوروهم فكان الجوار طريق العلم بالإسلام، وكانت الحاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال إليه.

لو كان السيف ينشر ديناً فقد عمل في الرقاب للإكراه على الدين والإلزام به، مهدداً كل أمة لم تقبله بالإبادة والمحو من سطح البسيطة، ومع كثرة الجيوش ووفرة العدد وبلوغ القوة أسمى درجة كانت تمكن لها، وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون كاملة، واستمر في شدته بعد مجيء الإسلام سبعة أجيال أو يزيد، فتلك عشرة قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الإسلام في أقل من قرن، هذا ولم يكن السيف وحده، بل كان الحسام لا يتقدم خطوة إلا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاءون تحت حمايته، مع غيرة تفيض من الأفئدة، وفصاحة تتدفق من الألسنة، وأموال تخلب ألباب المستضعفين، إن في ذلك لآيات للمستيقنين.

جلت حكمة الله في أمر هذا الدين، سلسبيل حياة نبع في القفار العربية، أبعد بلاد الله عن المدنية، فاض حتى شملها، فأحياها حياة شعبية ملية، علا مده حتى استغرق ممالك كانت تفاخر أهل السماء في رفعتها، وتعلو أهل الأرض بمدنيتها،

زلزل هديره ـ على لينه ـ ما كان استحجر من الأرواح فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها.

قالوا: كان لا يخلو من غَلَب (بالتحريك). قلنا: تلك سنة الله في الخلق، لا تزال المصارعة بين الحق والباطل، والرشد والغي قائمة في هذا العالم إلى أن يقضي الله قضاءه فيه. إذا ساق الله ربيعاً إلى أرض جدبة، ليحيي ميتها وينقع غلتها وينمي الخصب فيها، أفينقص من قدره إن أتى في طريقه على عقبة فعلاها، أو بيت رفيع العماد فهوى به؟؟.

سطع الإسلام على الديار التي بلغها أهله، فلم يكن بين أهل تلك الديار وبينه إلا أن يسمعوا كلام الله ويفقهوه، اشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمناً، وانحرفوا عن طريق الدين أزماناً فوقف وقفة القائد خذله الأنصار، وكاد يتزحزح إلى ما وراء، لكن الله بالغ أمره، فانحدرت إلى ديار المسلمين أمم من التتار يقودها «جنكيز خان»، وفعلوا بالمسلمين الأفاعيل[٥٠]، وكانوا وثنيين جاءوا لمحض الغلبة والسلب والنهب، ولم يلبث أعقابهم أن اتخذوا الإسلام ديناً وحملوه إلى أقوامهم، فعمهم منه ما عم غيرهم، جاءوا لشقوتهم فعاجوا بسعادتهم.

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة، لم يبق ملك من ملوكه ولا شعب من شعوبه إلا اشترك فيها، واستمرت المجالدات بين الغربيين والشرقيين أكثر من مائتي سنة[٥١]،

---

(٥٠) كان ذلك منتصف القرن الثالث عشر الميلادي.

(٥١) في الحروب الشهيرة بالحروب الصليبية (١٠٩٦ ـ ١١٩٢ م).

جمع فيها للغربيين من الغيرة والحمية للدين ما لم يسبق لهم من قبل، وجيشوا من الجند وأعدوا من القوة ما بلغته طاقتهم، وزحفوا على ديار المسلمين، وكانت فيهم بقية من روح الدين، فغلب الغربيون على كثير من البلاد الإسلامية، وانتهت تلك الحروب الجارفة بإجلائهم عنها، لم جاءوا؟ وبماذا رجعوا؟؟.

ظفر رؤساء الدين في الغرب بإثارة شعوبهم ليبيدوا ما يشاءون من سكان الشرق، أو يستولي سلطان تلك الشعوب على ما يعتقدون لأنفسهم الحق في الاستيلاء عليه من البلاد الإسلامية. جاء من الملوك والأمراء وذوي الثروة والأعلياء جم غفير، وجاء ممن دونهم من الطبقات ما قدروه بالملايين، استقر المقام بكثير من هؤلاء في أرض المسلمين، وكانت فترات تنطفىء فيها نار الغضب وتثوب العقول إلى سكينتها، تنظر في أحوال المجاورين، وتلتقط من أفكار المخالطين وتنفعل بما ترى وما تسمع، فتبينت أن المبالغات التي أطاشت الأحلام وجسمت الآلام لم تصب مستقر الحقيقة، ثم وجدت حرية في دين، وعلماً وشرعاً وصنعة، مع كمال في يقين، وتعلمت أن حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الإيمان لا من العوادي عليه، ثم جمعت من الأدب ما شاء الله وانطلقت إلى بلادها قريرة العين بما غنمته من جِلادها. هذا ما كسبه السفار من أطراف الممالك إلى بلاد الأندلس بمخالطة حكمائها وأدبائها ثم عادوا به إلى شعوبهم ليذيقوهم حلاوة ما كسبوا، وأخذت الأفكار في ذلك العهد تتراسل، والرغبة في العلم تتزايد بين الغربيين، ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد، ونزعت العزائم إلى تقييد سلطان

زعماء الدين والأخذ على أيديهم فيما تجاوزوا فيه وصاياه، وحرفوا في معناه، ولم يكن بعد ذلك إلا قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو إلى الإصلاح والرجوع بالدين إلى سذاجته، جاءت في إصلاحها بما لا يبعد عن الإسلام إلا قليلاً، بل ذهب بعض طوائف الإصلاح في العقائد إلى ما يتفق مع عقيدة الإسلام إلا في التصديق برسالة محمد ﷺ، وأن ما هم عليه إنما هو دينه، يختلف عنه إسماً ولا يختلف معنى، إلا في صورة العبادة لا غير.

ثم أخذت أمم أوروبا تَفْتَكّ من أسرها، وتصلح من شؤونها، حتى استقامت أمور الدنيا على مثل ما دعا إليه الإسلام، غافلة عن قائدها، لاهية عن مرشدها، وتقررت أصول المدنية الحاضرة التي تفاخر بها الأجيال المتأخرة من سبقها من أهل الأزمان الغابرة. هذا طل من وابله أصاب أرضاً قابلة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.

جاء القوم ليبيدوا فاستفادوا، وعادوا ليفيدوا، ظن الرؤساء أن في إهاجة شعوبهم شفاء ضغنهم، وتقوية ركنهم، فباءوا بوضوح شأنهم، وضعضعة سلطانهم وما بيناه في شأن الإسلام، ويعرفه كل من تفقه فيه، قد ظفر به كثير من أهل النظر في بلاد الغرب فعرفوا له حقه واعترفوا أنه كان أكبر أساتذتهم فيما هم فيه اليوم. وإلى الله عاقبة الأمور(٥٢).

---

(٥٢) في الفصل الخاص بالقرآن أشرنا إلى تبني الإمام لرأي ذلك الحكيم الغربي الذي أرجع الإصلاح الديني في أوروبا المسيحية إلى تعاليم الإسلام المقتبسة من أهله..

إيراد سهل الإيراد

يقول قائلون: إذا كان الإسلام إنما جاء لدعوة المختلفين إلى الاتفاق، وقال كتابه: **﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء﴾**[٥٣]، فما بال الملة الإسلامية قد مزقتها المشارب، وفرقت بين طوائفها المذاهب؟؟.

إذا كان الإسلام موحداً فما بال المسلمين عددوا؟ إذا كان مولياً وجه العبد وجهة الذي خلق السماوات والأرض، فما بال

---

* وهنا يعود الأستاذ الإمام للحديث عن هذ الأمر مشيراً إلى «الآداب التي جمعها الصليبيون المحاربون في المشرق، والمكاسب العلمية التي اكتسبها «سفراء» أوروبا من الأندلس، وثمرة كل ذلك التي تجسدت في حركة الإصلاح الديني المسيحية، وكيف جاء المذهب الجديد ـ البروتستانتية ـ قاب قوسين أو أدنى من الإسلام فيما خرج به على البابوية الكاثوليكية من إصلاحات.. وللمرحوم الأستاذ أمين الخولي بحث نفيس في هذا المقام عنوانه «صلة الإسلام بإصلاح المسيحية» «سنة ١٩٣٥ م» قدم فيه دراسة علمية تثبت بالأدلة والبراهين ما أشار إليه في إجمال هنا الأستاذ الإمام.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الأستاذ الخولي قد عاب في نهاية بحثه على الشيخ رشيد رضا وضعه في الطبعة السابعة من رسالة التوحيد سنة ١٣٥٣ هـ سنة ١٩٣٤ م وضعه لهذه الفقرة عنواناً فرعياً هو «اقتباس الإصلاح الديني في أوروبا من الإسلام» بحجة أن كلام الأستاذ الإمام لا يشير إلى الاقتباس، ولكننا نرى أن نص الأستاذ الإمام يشهد بسبقه «بالإشارة» إلى ما أبدع في دراسته بعد ذلك الأستاذ الخولي عليهم جميعاً رحمه الله.

(٥٣) سورة الأنعام: الآية ١٥٩.

جمهورهم يولون وجوههم من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا يستطيع من دون الله خيراً ولا شراً؟، وكادوا يعدون ذلك فصلاً من فصول التوحيد؟!. إذا كان أول دين خاطب العقل، ودعاه إلى النظر في الأكوان، وأطلق له العنان يجول في ضمائرها بما يسعه الإمكان، ولم يشرط عليه في ذلك سوى المحافظة على عقد الإيمان، فما بالهم قنعوا باليسير، وكثير منهم أغلق على نفسه باب العلم ظناً منه أنه قد يرضي الله بالجهل وإغفال النظر فيما أبدع من محكم الصنع؟!. ما بالهم وقد كانوا رسل المحبة أصبحوا اليوم وهم يتنسمونها ولا يجدونها؟. ما بالهم بعد أن كانوا قدوة في الجد والعمل، أصبحوا مثلاً في القعود والكسل؟. ما هذا الذي ألحق المسلمون بدينهم، وكتاب الله بينهم يقيم ميزان القسط بين ما ابتدعوا وبين ما دعاهم إليه فتركوه؟!.

إذا كان الإسلام في قربة من العقول والقلوب على ما بينت ـ فما باله اليوم ـ على رأي القوم ـ تقصر دون الوصول إليه يد المتناول؟، إذا كان الإسلام يدعو إلى البصيرة فيه، فما بال قراء القرآن لا يقرءونه إلا تغنياً، ورجال العلم بالدين لا يعرفه أغلبهم إلا تظنياً؟.

إذا كان الإسلام منح العقل والإرادة شرف الاستقلال، فما بالهم شدوهما إلى أغلال، أي أغلال؟!، إذا كان قد أقام قواعد العدل، فما بال أغلب حكامهم يضرب به المثل في الظلم؟، إذا كان الدين في تشوق إلى حرية الأرقاء، فما بالهم قضوا قروناً في استعباد الأحرار؟، إذا كان الإسلام يعد من أركانه حفظ العهود

والصدق والوفاء، فما بالهم قد فاض بينهم الغدر والكذب والزور والافتراء؟!، إذا كان الإسلام يحظر الغيلة ويحرم الخديعة ويوعد على الغش بأن الغاش ليس من أهله، فما بالهم يحتالون حتى على الله وشرعه وأوليائه؟، إذا كان قد حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فما هذا الذي نراه بينهم في السر والعلن والنفس والبدن؟، إذا كان قد صرح بأن الدين النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين، خاصتهم وعامتهم، و ﴿**إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**﴾[٥٤]، وإنهم إن لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر سلط عليهم شرارهم، فيدعو خيارهم فلا يستجاب لهم، وشدد في ذلك بما لم يشدد في غيره، فما بالهم لا يتناصحون ولا يتواصون بحق، ولا يعتصمون بصبر، ولا يتناصحون في خير ولا شر، بل ترك كل صاحبه وألقى حبله على غاربه، فعاشوا أفذاذاً[٥٥]، وصاروا في أعمالهم أفراداً، لا يحس أحدهم بما كان من عمل أخيه كأنه ليس منه، وكأن لم تجمعه معه صلة، ولم تضمه إليه وشيجة؟! ما بال الأبناء يقتلون الآباء؟، وما بال البنات يعققن الأمهات؟ أين وشائج الرحمة؟، أين عاطفة الرحم على القريب؟؟، أين الحق الذي فرض في أموال الأغنياء للفقراء وقد أصبح الأغنياء يسلبون ما بقي في أيدي أهل البأساء؟!..

قبس من الإسلام أضاء الغرب، كما تقول، وضوءه الأعظم

---

(٥٤) سورة العصر: الآيتان ٢، ٣.

(٥٥) أفراد متفرقون في الفردية، ضد التضامن والجماعية.

وشمسه الكبرى في الشرق، وأهله في ظلمات لا يبصرون..
أصح هذا في عقل، أو عهد في نقل؟! ألم تر إلى الذين تذوقوا من العلم شيئاً، وهم من أهل هذا الدين، أول ما يعلق بأوهام أكثرهم أن عقائده خرافات، وقواعده وأحكامه ترهات، ويجدون لذتهم في التشبه بالمستهزئين ممن سموا أنفسهم أحرار الأفكار وبعداء الأنظار؟ وإلى الذين قصروا همهم على تصفح أوراق من كتبه، ووسموا أنفسهم بأنهم حفاظ أحكامه والقوام على شرائعه، كيف يجافون علوم النظر ويهزءون بها، ويرون العمل فيها عبثاً في الدين والدنيا، ويفتخر الكثير منهم بجهلها، كأنه في ذلك قد هجر منكراً، أو ترفع عن دنيئة؟!.

فمن وقف على باب العلم من المسلمين تجد دينه كالثوب الخلق، يستحي أن يظهر به بين الناس، ومن غرته نفسه بأنه على شيء من الدين، وأنه مستمسك بعقائده يرى العقل جِنّة[٥٦] والعلم ظِنّة..!! أليس في هذا ما يشهد الله وملائكته والناس على أن لا وفاق بين العلم والعقل وهذا الدين؟؟!!.

* * *

الجواب

ربما لم يبالغ الواصف لما عليه المسلمون اليوم، بل من عدة أجيال، وربما كان ما جاء في الإيراد قليلاً من كثير، وقد

---

(٥٦) الجنة، بكسر الجيم وتشديد النون المفتوحة: من معانيها: الجنون، وهو المراد هنا.

وصف الشيخ الغزالي، رحمه الله، وابن الحاج[٥٧]، وغيرهما من أهل البصر في الدين ما كان عليه مسلمو زمانهم، عامتهم وخاصتهم، بما حوته مجلدات، ولكن قد أتيت في خاصة الدين الإسلامي بما يكفي للاعتراف به مجرد تلاوة القرآن، مع التدقيق في فهم معانيه، وحملها على ما فهمه أولئك الذين أنزل فيهم وعمل به بينهم، ويكفي في الاعتراف بما ذكرته من جميل أثره قراءة ورقات في التاريخ على ما كتبه محققو ومصنفو سائر الأمم، فذلك هو الإسلام.

وقد أسلفنا أن الدين هدى وعقل، من أحسن في استعماله والأخذ بما أرشد إليه نال من السعادة ما وعد الله اتباعه. وقد جرب علاج الاجتماع الإنساني بهذا الدواء، فظهر نجاحه ظهوراً لا يستطيع معه الأعمى إنكاراً، والأصم إعراضاً. وغاية ما قيل في الإيراد: أن أعطى الطبيب إلى المريض دواء، فصح المريض، وانقلب الطبيب بالمرض الذي كان يعمل لمعالجته، وهو يتجرع الغصص من آلامه والدواء في بيته وهو لا يتناوله وكثير ممن يعودونه أو يتشفون منه ويشمتون لمصيبته يتناولون من ذلك الدواء فيعافون من مثل مرضه، وهو في يأس من حياته، ينتظر الموت، أو تبدل سنة الله في شفاء أمثاله.

كلامنا اليوم في الدين الإسلامي وحاله على ما بينا، أما

---

(٥٧) كثيرون هم الذين اشتهروا بـ «ابن الحاج». وممن عاصر منهم الغزالي ـ أو جاء بعده ـ وانتقد عصره: ابن الحاج القناوي [٥١١ ـ ٥٩٩ هـ ١١١٧ ـ ١٢٠٣ م] ومن مؤلفاته [تهذيب ذهن الواعي في إصلاح الرعية والراعي]. وابن الحاج، أبو عبد الله العبدري [٧٣٧ هـ ١٣٣٦ م] صاحب [مدخل الشرع الشريف].

المسلمون، وقد أصبحوا بسيرهم حجة على دينهم فلا كلام لنا فيهم الآن، وسيكون الكلام عنهم في كتاب آخر[٥٨] إن شاء الله.

---

(٥٨) تعد كتابات الأستاذ الإمام التي تتناول علاقة الإسلام بالحضارة ووضع المسلمين إزاءها وفاء بوعده هذا، وهي مقالات وأبحاث جمعناها في «أعماله الكاملة»، أما في حياته فلم يخرج كتاباً متكاملاً في هذا الموضوع.

التصديق بما جاء به محمد ﷺ

بعد أن ثبتت نبوته، عليه السلام، بالدليل القاطع، على ما بينا، وأنه إنما يخبر عن الله تعالى، فلا ريب أنه يجب تصديق خبره، والإيمان بما جاء به، ونعني بما جاء به ما صرح به في الكتاب العزيز، وما تواتر الخبر به تواتراً صحيحاً مستوفياً لشرائطه، وهو: «ما أخبر به جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة في أمر محسوس».

ومن ذلك أحوال ما بعد الموت، من بعث، ونعيم في جنة وعذاب في نار، وحساب وسيئات، وغير ذلك مما هو معروف. ويجب أن يقتصر في الاعتقاد على ما هو صريح في الخبر، ولا تجوز الزيادة على ما هو قطعي بظني. وشرط صحة الاعتقاد أن لا يكون فيه شيء يمس التنزيه وعلو المقام الإلهي عن مشابهة المخلوقين، فإن ورد ما يوهم ظاهره ذلك في المتواتر وجب صرفه عن الظاهر، إما بتسليم الله في العلم بمعناه، من اعتقاد أن الظاهر غير مراد، أو بتأويل تقوم عليه القرائن المقبولة.

أما أخبار الآحاد فإنه يجب الإيمان بما ورد فيها على من بلغته وصدّق بصحة روايتها، أما من لم يبلغه الخبر، أو بلغه وعرضت له شبهة في صحته، وهو ليس من المتواتر، فلا يطعن في إيمانه عدم التصديق به. والأصل في جميع ذلك: أن من

أنكر شيئاً وهو يعلم أن النبي ﷺ، حدّث به، أو قرره فقد طعن في صدق الرسالة وكذب بها، ويلحق به من أهمل في العلم بما تواتر وعُلم أنه من الدين بالضرورة، وهو ما في الكتاب وقليل من السنة في العمل.

من اعتقد بالكتاب العزيز، وبما فيه من الشرائع العملية، وعسر عليه فهم أخبار الغيب على ما هي في ظاهر القول، وذهب بعقله إلى تأويلها بحقائق يقوم له الدليل عليها، مع الاعتقاد بحياة بعد الموت، وثواب وعقاب على الأعمال والعقائد، بحيث لا ينقص تأويله شيئاً من قيمة الوعد والوعيد، ولا ينقص شيئاً من بناء الشريعة في التكليف، كان مؤمناً حقاً[1]، وإن كان لا يصح اتخاذه قدوة في تأويله، فإن الشرائع الإلهية قد نظر فيها إلى ما تبلغه طاقة العامة لا إلى ما تشتهيه عقول الخاصة. والأصل في ذلك أن الإيمان هو اليقين في الاعتقاد بالله ورسله واليوم الآخر بلا قيد في ذلك إلا احترام ما جاء على ألسنة الرسل.

بقيت علينا مسألتان، وضعتا من هذا العلم في مكان من

---

(١) هذه المسألة من المسائل التي أثارت جدلاً قديماً بين المفكرين، فالغزالي مثلاً، يرى تكفير من ينكر الأوصاف الحسية لما بعد الموت وللمعاد بوجه خاص، بما في ذلك حشر الأجساد والعقوبات الحسية. بينما يرى ابن رشد أن هذه الأوصاف الحسية «تمثيل» يهدف إلى الاقناع للجمهور، لأن «تمثيل المعاد لهم بالأمور الجسمانية أفضل من تمثيله بالأمور الروحانية»... والأستاذ الإمام هنا يميل إلى رأي ابن رشد في هذا الموضوع. انظر (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) للغزالي ص ٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧ م و (تهافت التهافت) لابن رشد ص ١٣٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣ م.

الاهتمام، وما هما منه إلا حيث يكون غيرهما مما أجملنا القول فيه:

الأولى: جواز رؤية الله تعالى في الآخرة.

والأخرى: جواز وقوع الكرامات وخوارق العادات، من غير الأنبياء، من الأولياء والصديقين.

رؤية الله

أما الأولى، فقد اشتد فيها النزاع ثم انتهى إلى وفاق بين المنزهين لا مجال معه للتنازع، فإن القائلين بجواز الرؤية من أهل التنزيه متفقون على أن الرؤية لا تكون على المعهود من رؤية البصر المعروفة لنا في مجرى العادة بل هي رؤية لا كيف فيها ولا تحديد، ومثلها لا يكون إلا ببصر يختص الله به أهل الدار الآخرة أو تتغير فيه خاصته المعهودة في الحياة الدنيا، وهو ما لا يمكننا معرفته، وإن كنا نصدق بوقوعه متى صح الخبر، والمنكرون لجوازها لم ينكروا انكشافاً يساويها، فسواء كان ذلك بالبصر الغير المعهود أو بحاسة أخرى فهو في المعنى يرجع إلى قول خصومهم[1]. ولكن مني الإسلام بقوم يحبون الخلاف، والله فوق ما يظنون.

الكرامات

أما الثانية، فأنكر جواز وقوع الكرامات أبو إسحاق الأسفرايبيني، من أكابر أصحاب أبي الحسن الأشعري، وعلى ذلك المعتزلة إلا أبا الحسين البصري[2] فقال بجواز وقوعها،

---

(١) انظر في رأي المعتزلة حول هذه القضية بحثنا (المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية) ص ٥٥ ـ ٥٧.

(٢) هو عبد الله الحسين بن علي البصري «٣٥٨ ـ ٣٩٩ هـ» كان تلميذاً لأبي هاشم عبد

وعليه جمهور الأشاعرة.

واستدل الذاهبون إلى الجواز بما جاء في الكتاب من قصة الذي عنده علم من الكتاب الواردة في خبر بلقيس، من إحضاره عرشها قبل ارتداد الطرف[٣]، وقصة مريم عليها السلام، وحضور الرزق عندها[٤]، وقصة أصحاب الكهف[٥].

واحتج الآخرون بأن ذلك يوقع الشبهة في المعجزات، وأولوا ما جاء في الآيات.

أما أن ذلك يوقع الشبهة في المعجزات فليس بصحيح، لأن المعجزات إنما تظهر مقرونة بدعوى الرسالة والتبليغ عن الله تعالى، ولا بد أن تكتنفها حوادث تميزها عما سواها، وأما ما احتج به المجوزون من الآيات فلا دليل فيه، لأن ما في قصة مريم وآصف[٦] قد يكون بتخصيص من الله تعالى، لوقوعه في عهد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا علم لنا بما اكتنف تلك الوقائع من شؤون الله في أنبياء ذلك العهد إلا قليلاً، وأما قصة

السلام بن محمد الجبائي، وهو معدود في الطبقة العاشرة من طبقات المعتزلة. انظر المنية والأمل ص ٦٢ ـ ٦٦.

(٣) الإشارة إلى قوله تعالى ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ الآية: النمل: ٤.

(٤) الإشارة إلى قوله تعالى ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً، قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ آل عمران: ٣٧.

(٥) الإشارة إلى قصة أصحاب الكهف ونومهم الطويل ثم يقظتهم. انظر سورة الكهف (الآيات ٩ وما بعدها).

(٦) أي زكريا.

أهل الكهف فقد عدها الله من آياته في خلقه، وذكرنا بها لنعتبر بمظاهر قدرته، فليست من قبيل ما الكلام فيه من عموم الجواز.

فبقي البحث في جواز وقوع الكرامات نوعاً من البحث في متناول همم النفوس البشرية وعلاقتها بالكون الكبير، وفي مكان الأعمال الصالحة، وارتقاء النفوس في مقامات الكمال من العناية الإلهية، وهو بحث دقيق قد يختص بعلم آخر(٧).

أما مجرد الجواز العقلي، وإن صدور خارق للعادة على يد غير نبي تتناوله القدرة الإلهية، فلا ظن أنه موضع نزاع يختلف عليه العقلاء، وإنما الذي يجب الالتفات إليه هو **أن أهل السنة وغيرهم في اتفاق على أنه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولي لله معين بعد ظهور الإسلام فيجوز لكل مسلم، بإجماع الأمة، أن ينكر صدور أي كرامة كانت من أي ولي كان، ولا يكون بإنكاره هذا مخالفاً لشيء من أصول الدين، ولا مائلاً عن سنة صحيحة، ولا منحرفاً عن الصراط المستقيم.**

أين هذا الأصل المجمع عليه مما يهذي به جمهور المسلمين في هذه الأيام؟ حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات أصبحت من ضروب الصناعات يتنافس فيها الأولياء وتتفاخر فيها همم الأصفياء؟؟؟!.. وهو مما يبرأ منه الله ودينه وأولياؤه وأهل العلم أجمعون.

---

(٧) هو التصوف.

خاتمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم

وَعدَ اللَّهُ الذينَ آمَنوا مِنكُمْ وَعمِلوا الصَّالِحاتِ ليَسْتَخلِفَنَّهُمْ في الأرض كما استَخْلَفَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَلَيُمكّنَنَّ لهُمْ دِينَهمْ الذي ارْتَضى لَهمْ، وَليُبدِّلنَّهمْ مِنْ بَعدِ خَوْفِهمْ أَمْناً، يَعبُدُونَني لا يُشرِكونَ بِي شَيئاً وَمَنْ كَفرَ بَعدَ ذَلكَ فَأُولئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾[٨].

وقد فُسّر الكفرُ في هذه الآية بكفر النعمة ﴿وأَنّا لما سَمِعنَا الهُدَى آمنّا بِه، فَمنْ يُؤمِنْ بِربّه فلاَ يَخَافُ بَخساً وَلا رَهقاً وَأَنّا منّا المُسْلِمُونَ وَمِنّا القاسِطونَ فَمنْ أَسْلمَ فأولئكَ تحرّوْا رشَداً، وأَمَّا القَاسِطونَ فَكانُوا لِجهنمَ حَطباً، وأَلّو اسْتقامُوا عَلَى الطَّرِيقةِ لأسْقَيناهمْ مَاءً غَدقاً لِنَفتنهمْ فِيهِ وَمَنْ يُعرِضْ عَنْ ذِكر رَبّه يَسْلكُه عَذاباً صعداً، وأَنَّ المساجِدَ للّهِ فَلا تَدْعوا مَع الله أَحَداً، وأَنهُ لمَّا قَامَ عَبْدُ الله يَدْعوهُ كادوا يَكُونونَ عَليْهِ لبِدَاً، قُلْ إِنَّما أَدْعُو رَبّي وَلا أُشرِكُ بِهِ أَحداً، قُلْ إِنّي لا أَمْلكَ لَكمْ ضَرّاً وَلا رَشداً، قُل إِني

(٨) سورة النور: الآية ٥٥.

لَن يُجيرَنِي مِنَ الله أَحد وَلن أَجِدَ مِنْ دُونِه مُلْتَحَداً إلاّ بَلاغاً مِنَ الله وَرِسَالاتِه وَمَنْ يَعْصِ الله وَرَسوله فإِنَّ لهُ نارَ جَهَنمَ خَالدينَ فِيها أَبداً، حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وأَقَلُّ عَدَداً، قُلْ إِنْ أَدري أَقَرِيبٌ ما توعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لهُ رَبِّي أَمَداً، عَالِم الغيبِ فَلا يُظهِرُ عَلَى غَيبِهِ أَحَداً، إلاَّ مَنْ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فإِنهُ يَسلُكُ مِنْ بَينَ يَديهِ وَمِنْ خَلفِهِ رَصداً لِيَعلمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وأَحَاط بِما لَدَيهِمْ وَأَحْصَى كلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾[٩].

صدق الله العظيم، وبَلَّغَ رسولهُ الكريم، وَخسىء الشيطانُ الرجيم، وحق الشكر لله رب العالمين، الرحمن الرحيم.

(٩) سورة الجن: الآية ١٢ ـ ٢٨.

مصادر التحقيق

- ابن حجر العسقلاني: (تهذيب التهذيب) طبعة حيدر أباد سنة ١٣٢٥ هـ.
- ابن رشد (أبو الوليد): (تهافت التهافت) طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣ م.
- ابن قتيبة: (المعارف) تحقيق: د. ثروت عكاشة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠ م.
- ابن المرتضى: (باب ذكر المعتزلة ـ من كتاب المنية والأمل) تحقيق: ارنولد. طبعة الهند سنة ١٣١٦ هـ.
- أمين الخولي: (صلة الإسلام بإصلاح المسيحية:) طبعة القاهرة سنة ١٩٣٥ م.
- الحسن البصري: (رسالة في القدر) منشورة في كتاب (رسائل العدل والتوحيد) دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٧١ م.
- السبكي: (طبقات الشافعية الكبرى) طبعة القاهرة ـ الأولى.
- طه حسين (دكتور): (الفتنة الكبرى) طبعة القاهرة ١٩٧٠ م.
- عبد الجبار بن أحمد: (المغني في أبواب التوحيد والعدل) طبعة القاهرة.

- **الغزالي (أبو حامد)**: (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧ م.
- **فان فلوتن**: (السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية) ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، محمد زكي إبراهيم. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م.
- **محمد عبده (الأستاذ الإمام)**: (الأعمال الكاملة) دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م.
- **محمد عمارة (دكتور)**: (المادية والمثالية في فلسفة ابن رشد) طبعة القاهرة سنة ١٩٧١ م.

  (المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية) طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م.

  (نظرة جديدة إلى التراث) طبعة بيروت سنة ١٩٧٤ م.

  (الإسلام والمرأة في رأي الإمام محمد عبده) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م.
- **محمد فؤاد عبد الباقي**: (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) طبعة دار الشعب. القاهرة.
- **مراد وهبة (دكتور) (وآخرين)**: (المعجم الفلسفي) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م.
- (دائرة المعارف الإسلامية) طبعة القاهرة ـ العربية ـ الأولى.

الفهرس



هذا الكتاب

○ الإسلام: دين (التوحيد).. والمسلمون: أمة (التوحيد).

○ ولقد كانت [رسالة التوحيد] - للإمام محمد عبده - أول كتاب حديث يقدم عقائد الإسلام مصفاة من «شغب» المتكلمين القدماء، ومن «جمود» المقلدين المتأخرين، ومن خرافات الإسرائيليات!..

إنه كتاب تتألق فيه «العقلانية الإسلامية» المتميزة، عندما تنظر في ذات الله وصفاته.. وفي النبوة والرسالة.. وفي القرآن.. وسائر عقائد الإسلام..

○ وفي هذه الطبعة الجديدة، تزدان [رسالة التوحيد] بتحقيقات وتعليقات الدكتور محمد عمارة، فتتميز على غيرها من الطبعات!.

مطابع الشروق



